خلف أسوار تدمر

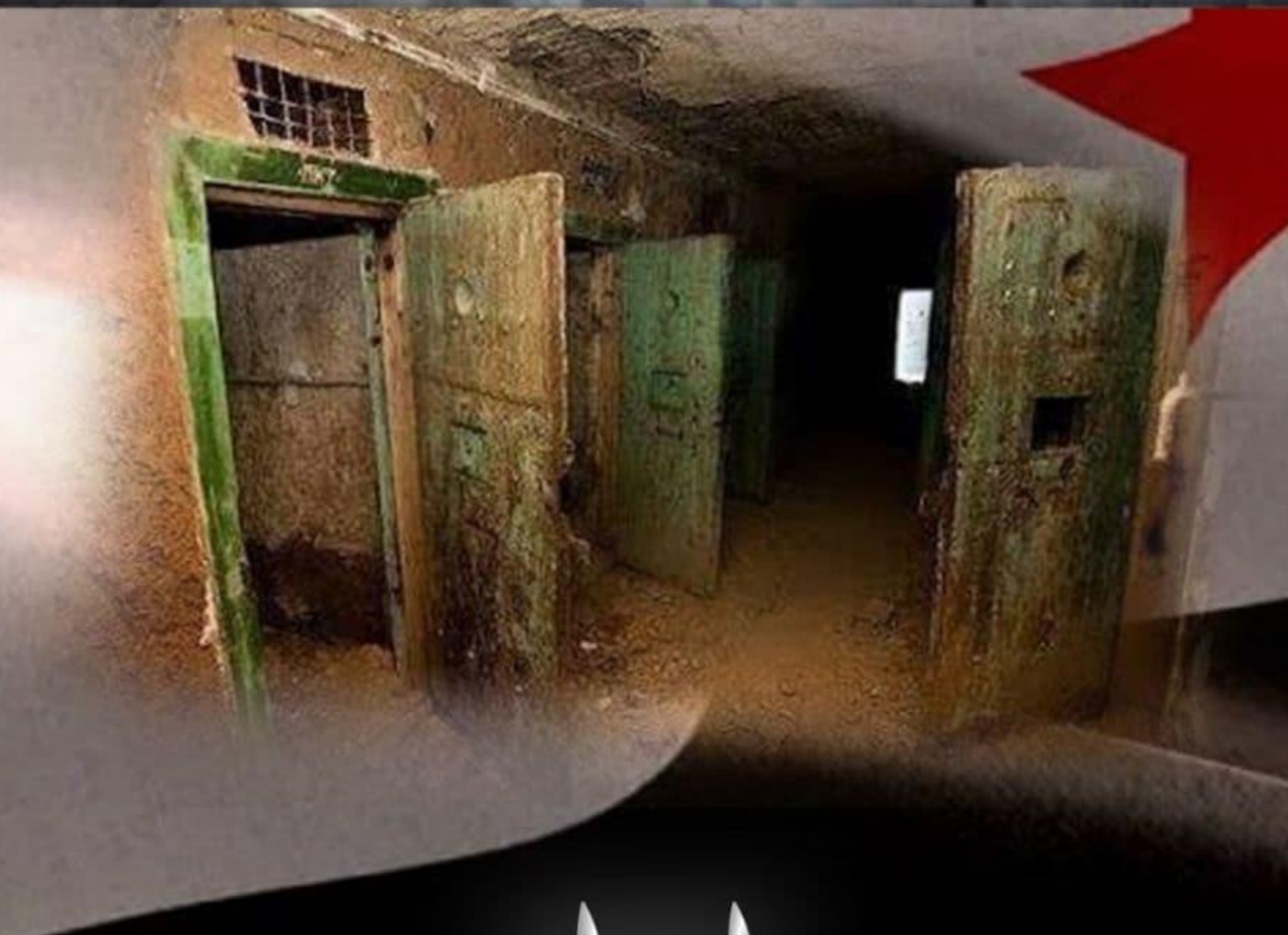

إعداد

عمر أحمد حذيفة

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى والدي الكريم – رحمه الله – قدوتي ومعلِّمي ....

علَّمني الرجولةَ وكيف أعيش بعزَّةٍ وكرامة ...

إلى والدتي الحبيبة التي ماتزال كلماتها تفيض عذوبةً وجمالاً وحناناً تصدح في أُذُنيّ ....

إلى إخوتي وأخواتي الذين لم ينسوني من دعواتهم الخالصةِ في كلّ حال ...

إلى زوجتي ورفيقةِ دربي التي صبرت عليَّ وتحمّلتني بكلّ رضاً ووفاء ...

إلى أولادي الذين طالما ربّيتهم على طاعة الله وحبِّ نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلّم ليكونوا المنارة المضيئة والشامة الجميلة التي تُزيّن الميدان ...

إلى أخوةٍ كرامٍ شاركوني آلام السجون بكلّ أصنافها فصبروا وثبتوا ولم تُثنِهم المحن والنوائب ...

إلى كلّ هؤلاء أهدي هذا الكتاب المتواضع الذي خطّه قلمي ليكون شاهداً على عصرٍ تسلّط فيه المجرمون واستبدّ فيه المنافقون وغُيِّب فيه الصادقون المخلصون فقُتلوا هناك وقُتِلت معهم أسرارهم ....

عمر حذيفة

٥ / ١٢ / ٢٠٢٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الكاتب :

ما زلت أتذكّر أحدَ أفراد قريتي الصغيرة الذي أمضى سنينَ في أحدِ السجون وكنت يومئذ شاباً صغيراً في بداية العقد الثاني وعلمت آنذاك أنّه أقدم على قتل رجلٍ من أجل مالٍ وقد قتله فعلاً....

وبقيت بعدها معتقداً أنّ السجون أُنشئت من أجل العقوبة والردع لذوي الطباع المنحرفة والنفوس السقيمة والقلوب التي تعصف بها الأهواء وشهوة القتل وسفك الدماء حتى إذا أصبحت في سنّ الخامسة عشرة من عمري ورأيت رجال الأمن المدججين بالسلاح يمتطون صهوات السيارات التي اشْتُرِيتْ من دماء الشعب وقوته وقد داهموا بعض البيوت في القرية واعتقلوا شباباً من الطلاب الجامعيين من أفضل شباب القرية ومن أكثرهم علماً وأكرمهم أخلاقا ....

جالت في نفسي أسئلةٌ كثيرةٌ وحاولت أن أربط بين الرجل الذي قتل رجلاً آخر من أجل مالٍ حازه سحتاً وأزهق نفس صاحبه وبين اعتقال شبابٍ من أصحاب العلم والسمعة الحميدة فكلاهما اعتقلا وأُدخلا إلى السجون ....

حاولت التفكير والربط في تلك القضية فلم أصل إلى توضيحٍ مُقنعٍ حتى أصبحت أحدَ المعتقلين السياسيين عام ١٩٨٠ م وأنا في السابعة عشرة من عمري آنذاك ...

أُدخلت السجن الرهيب وصرت خلف القضبان لأشاهد الألوف من العلماء والمصلحين فأدركت أنّ الأمر أكبر ممّا كنت أتصوّر بكثير وأنّ تلك السجون أُعدّت لأصحاب الفكر والعلم والمعرفة والإبداع الذين قد يشكّلون خطراً على الظَلَمَة والمجرمين والحكّام الطغاة والجبابرة المفسدين فكان لا بدّ من استئصال خضرائهم وسفك دمائهم وتغييبهم في ظلمات السجون والمعتقلات...

والتفرد بالسلطة والاستئثار بخيرات البلاد وقتل العباد وإطفاء مصابيح الخير والعدل والرشاد والتمكين للإجرام والطغيان والفساد

نعم يا سادة

كانت هذه بداية رحلتي كما رحلات عشرات الألوف في سجون المقبور حافظ الأسد ....

خلف أسوار تدمر

كتبه: **عمر أحمد حذيفة**، ابن أحمد، والدته آمنة، من مواليد ١٥/٤/١٩٦٣م. من قرية البيضا التابعة لمدينة بانياس من محافظة طرطوس.

درست الابتدائية في مدرسة القرية ثم الإعدادية، لكني لم أُكمل الثانوية بسبب اعتقالي على يد عصابات الأسد المجرمة التي كانت تلاحق كل من يملك اتجاهاً إسلامياً لسببٍ أو لآخر، حيث نشأت في عائلة محافظةٍ ملتزمةٍ وذات طابعٍ علميٍ مثقفٍ، لأكون معتقلاً ورهينةً بتهمةٍ واهيةٍ وهي أني كتبت على السبّورة في استراحة المدرسة عبارة إسلامية وشعار كل أخٍ مسلمٍ وهي "لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله"، وقوله تعالى (فاصدعْ بما تُؤمَرْ وأعرضْ عن المشركين)، وكنت آنذاك في الصف الثالث الإعدادي، أي في الخامسة عشر من عمري، لأحاسب على ذلك بعد سنتين، وكانت التهمةٌ جاهزةً حيث اعتُقلت في ٢٧/١٠/١٩٨٠م. ولم يُفرج عني إلا في ٢/ ٤/١٩٩٢م.!

لم أستطع كتابة هذه المذكّرات إلا بعد فترةٍ ليست بالقصيرة، والسبب الرئيسي في ذلك الخوف الذي تغلغل في نفوسنا من الحكم الجائر الجاثم على صدورنا، فكتم على أفواهنا وعدّ علينا أنفاسنا على مدى أربعة عقودٍ ونيّفٍ، ثم جاء الوقت الذين بانت فيه بشائر النصر لنكتب ما تبقّى عالقاً في أذهاننا من تلك المآسي التي تدل على حقيقة هؤلاء الطغاة وتعرّيهم في البلاد وأمام العباد، وقد ساعدني في ذلك كلٌ من الإخوة الأفاضل الذين طالتهم يد الغدر والخيانة معي في أقبية الفروع وغيابة السجون وهم:

مصطفى الشغري، ابن أحمد، والدته فاطمة، من مواليد ١٩٦٣/١٢/١٠م. من قرية البيضا التابعة لمدينة بانياس من محافظة طرطوس.

درس مصطفى الابتدائية والاعدادية في القرية ولم يستطع إكمال الدراسة بسبب اختطافه من عصابات الأسد المجرمة، ولم يُفرج عنه إلا في ٢/ ١٩٩٢/٤م.

مالك علي، ابن محمد، والدته آسيا، من مواليد ١٩٦٢م. من جسر الشغور التابعة لمحافظة إدلب.

درس مالك الابتدائية والإعدادية والثانوية الأدبية في المدينة، ثم درس الحقوق في جامعة بيروت العربية، إلا أنه ما أن انتهى من السنة الأولى حتى تمّ اعتقاله بتاريخ ١٩٨٠/١٠/١٣م. وكانت تهمته الانتماء للإخوان المسلمين، والحقيقة أنه حضر درس قرآن في أحد المساجد، ليحصد ثمن ذلك الدرس أربعاً وعشرين سنة في سجون الطاغية المقبور حافظ الأسد، ولم يُفرج عنه إلا في ٢٠٠٤/٨/٤م.

صلح سلوم، ابن محمد، والدته حنوف، من مواليد ١٩٦٤/١١/٢٥م. من مدينة كَفْرَنْبِل التابعة لمحافظة إدلب.

درس صلح الابتدائية والإعدادية في عدة قرى لأن والده كان يخدم في سلك الشرطة وقتذاك، وأما الثانوية فدرسها في مدينة كَفْرَنْبِل، وأكمل بعدها دراسة معهد (مراقب فني) في مدينة حلب، حيث تمّ اعتقاله في ١٩٨٣/٧/٦م. بتهمة التواطؤ مع الإخوان المسلمين كونه ذوميول إسلامية ونشأ في بيئةٍ إسلاميةٍ محافظةٍ جعلت أنظار الأمن آنذاك تراقبه إلى أن تمّ اصطياد لسببٍ يوجب اعتقاله بزعمهم، ولم يُفرج عنه حتى تاريخ ٢٥/ ١٩٩١/١٢م.

صحيح أنّا خسرنا جزءاً من حياتنا قضيناها خلف القضبان لنتخلّف عن ركب الحضارة حسب زعم بعض الناس، إلا أنّ الله تعالى أكرمنا وعوّضنا كلّ ما خسرناه من متاع الدنيا الزائل فكانت هذه الرحلة بالنسبة لنا إكراماً من الله ونعمةً على ما تفضّل به علينا من حفظٍ

لكتابه، وتفقّهٍ بعلومه، واكتساب خبرةٍ ممن عشنا معهم في تلك الفترة العصيبة، فللّه الحمد والمنّة على ما قدّر، وله الفضل في الأولى والآخرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الهادي الأمين، وعلى آله وصحابته الطيبين الطاهرين.

وبعد عزيزي القارئ:

لا تظلمنَّ إذا ما كنتَ مقتدراً فالظلم ترجع عقباهُ إلى الندمِ

تنام عينك والمظلوم مُنتبهٌ يدعوعليكَ، وعينُ الله لمْ تنمِ

ما كنت أتصور يوماً من الأيام أن يصل ظلم الإنسان لأخيه الإنسان إلى حد يصل إلى أدنى مستوى عرفته البشرية، بل تعداه إلى ما دون ذلك (وذلك بسبب حداثة سني إذ كنت أبلغ من العمر آنذاك سبعة عشر عاماً)؛ وقد تبيَن لي فيما بعد أنّ الكثير من الظالمين والطغاة عبر التاريخ اعتقدوا أنَ الحياة ملك لهم يتصرفون بها كيف يشاؤون، فجندوا لهذا الاعتقاد كل ما يملكون من قوة واتبعوا كل الأساليب لتثبيته في نفوس أتباعهم، وتنوعت الطرق والأشكال التي استعملوها في هذا المضمار، فمنها الترغيب ومنها الترهيب، ولم يبق لهم إلا أن يقولوا كما قال سيد الطغاة "فرعون" من قبلهم: "أنا ربكم الأعلى"!! ولا أبالغ إن قلت إنهم قالوها بأفعالهم، لأنّ أفعالهم كانت دليلاً واضحاً على أنّ ممارساتهم لا يقوم بها أحد، وليست من حق إلا خالق هذا الكون سبحانه وتعالى، حيث جعلوا من شعوبهم دميةً يرسمون لها الحياة ويصوغون لها الفكر، فجرّدوا شعوبهم من كل إنسانية، إذ لا مجال للتفكير أمام تفكيرهم، والحق ما قالوه وما عداه الباطل، وتدبيرهم هوالأفضل للشعب وللوطن، والويل كل الويل لمن وقف وقفة حق وفنّد الحقيقة، حقيقة أقوالهم بل وفضح أمرهم وأكاذيبهم.

فما سمعنا يوماً عن تعذيب وإهانات واتهامات أكثر من محاكم التفتيش التي مُورِست ضد المسلمين في الأندلس، إلا أنّ التاريخ يعيد نفسه لكن بصورة أقسى وأمرّ وأشدّ وحشية، فقد تخطوا كل ذلك وانزلقوا في دركات الرذيلة والفحش إلى حدّ ليس له مثيل.

ولعلَ أروع من ضربَ لنا مثلاً في هذا السِياق من سماه زبانِيتهُ وحاشِيتهُ مرّة بـِ" الملهم" ومرّة بـ"بسمارك الشرق"! إنه دكتاتور القرن العشرين المقبور "حافظ الأسد" حيث تمكن هذا الطاغية من الاستيلاء على السلطة في سورية بانقلاب عسكري تمكن فيه من تثبيت حُكمه بالحديد والنار، وعمل على تصفية خصومه من الضباط والبارزين أصحاب النفوذ الذين قد يسببون له خطراً في المستقبل، وكذلك فقد أجاد فن المراوغة والخداع والكذب، يستميل قلوب كثير من الشعب أمثال الطبقة الكادحة من العمال والفلاحين، كما خدع بعض المشايخ والمتملِقين من الإعلاميين والمفكرين والكتّاب الذين باعوا دينهم بعرض من الدنيا قليل، فقلبوا الحقائق وجعلوا من الكذب والخيال حقيقة يعيشها عماة البصر والبصيرة! كما أنه . من شدة خبثه ودهائه . كان الطفل المدلل عند الصهيونية ومن لفّ لفيفهم، فهو الحامي الأول لهم، والمدافع الحميم عنهم، والمحتفظ بحق الرد عند اعتدائهم على الأرض التي نصّب نفسه عليها حاكماً وأميناً، بل وحريصاً على حمايتها "ولو بعد مئات السنين.... ولن يحصل هذا أبداً....!"؛ فهو يرفع شعار المقاومة والممانعة أمام شعبه وهو أبعد عنها بعد السماء عن الأرض، وهكذا بدأت حكايتنا في سورية الجريحة تحت نظام العائلة الأسدية وما زالت.... ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وقد سبقني في هذه التجربة المريرة المئات بل الألوف من الشباب الذين قضى بعضهم في السجون وشرد البعض الآخر بعد أن انتهكت الأعراض واستُبيحت الحرُمات من هذا النظام الفاسد.

بين الحق والباطل

حقيقة ينبغي ألا تغيب عن أذهاننا وهي أنّ الله تعالى جعل المعركة قائمة بين الحق والباطل منذ أن خلق الأرض وخلق فيها آدم وأسكنه جنته، وخلق فيها إبليس الذي أخذ على نفسه بالإفساد والتضليل والإغواء لابن آدم حتى كان سبباً في هبوط أبينا آدم من الجنة كما أخبرنا ربنا سبحانه في كتابه الكريم، وفي ذلك إشارة إلى أنّ المعركة إنما هي بين الحق والباطل، وهذا ما وجدناه في صفحات التاريخ؛ فما كان من قتل قابيل لأخيه هابيل إلا نموذجاً من هذا الصراع؛ وهكذا فالحياة التي خُلقنا فيها ونعيش بين طياتها مليئة بصراعات الحق والباطل، فتارة ينتصر الحق وتارة يَغلبه الباطل حتى يرث الله الارض ومن عليها.

وهذا ما ابتُلينا به في هذا العصر الذي تقلّد فيه الطاغية المقبور حافظ الأسد قيادة البلد سورية ليمثّل فيها الباطل بكل أشكاله ومجالاته، حيث شرّع القوانين وسنّ الدساتير التي من شأنِها أن تقضي على جيل الحق بأكمله، جيل من أفضل شباب الأمة، إذ من الصعب أن يعود مثله بعشرات السنين.

تمثّل أحد قوانينه التي سَنّها بما يسمّى قانون ٤٩ عام ١٩٧٩م. والذي كان من نصوصه ما يلي: "يُحكم بالإعدام كل من ينتمي إلى تنظيم الإخوان المسلمين".

وقد أخذ الموافقة عليه وعلى تنفيذه من زبانيته وطغاته المحيطين به ليقضي بحجّة هذا القانون على عشرات الآلاف من أفضل رجال وشباب سوريا من أطباء ومهندسين وأساتذة تمّت تصفيتِهم على أعواد المشانق في باحات السجون، تشهد لهم على ذلك صحراء تدمر التي ما تزال تئِن من عِظم تلك الجرائم وقسوة هذه القلوب التي انتُزِعت الرحمة منها!

نعمة أم نقمة

يخطئ كثيرٌ من الناس عندما يفكرون أنّ المصيبة إذا ما وقعت على الإنسان إنما هي محض انتقام منه بسبب ذنب قد ألمّ به أو خطأ قد ارتكبه، وإن كان في هذا شيء من ذلك، لكنّ الحقَ هو أنّ الله جعل في البلاء فوائد جمة لا يَطّلِعُ عليها إلا من وقع في أتونه واكتوى بلهيبه.

ففي المحن تكفيرٌ للذنوب وسبرٌ للنفوس لتتكشف على حقيقتها.

وفي المحن يتميز الخبيث من الطيّب، فكم من شخص كان ينتحل شخصية العالم الزاهد الورع إلا أنه سقط في خضم المحنة ومستنقع البلاء ليُكشف على حقيقته ويسقط عنه القناع؛ وكم من أخٍ فاضل مغمور لا يُنظر إليه ولا يُؤْبه به تراه في مقدمة الصفوف وميادين الجهاد يبتغي مرضاة الله تعالى ورضوانه.

وفي المحن تزول قساوة القلوب وتعود لرقتها وصفائها وفطرتها التي فطرها الله، لتقف على بابه وتتضرّع بين يديه وتعلم أن لا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه.

وفي المحن تذكيرٌ للعبد بذنوبه لربما تاب لربه وأناب لتُحطّ عنه الذنوب والخطايا، فما من شوكة يُشاكُها المسلم إلا وله بها أجر.

وفي المحن يشعر الإنسان بتقصيره نحو نفسه وأهله ووطنه وإخوانِه، فيعلمَ أنّ له في حياته مهمة موكلة إليه ينبغي أن يقوم بها كما أمره الله.

وفي المحن يتعرّف العبد على نفسه التي بين جنبيه التي كانت تشده للذنوب والمعاصي وتوقعه في المهالك والمآسي، لينهض من غفلته ويعود الى حديقة الإيمان، كما يتعرّف على عدوه الذي كان ينظر إليه بعين الأخوة والجيرة بمنظار قلب المؤمن الطيّب، ليعرفه عن قرب حقيقي متفهماً قوله تعالى (إن يثقفوكمْ يكونوا لكم أعداءً وودّوا لوْ تكفرون).

وفي المحن ينقطع قلب المؤمن عن الالتفات إلى غير المنعم المتصدّق ليذيقه طعم الصبر ولذته وتعلمه بكل أشكاله وجميع صوره والرضا به.

وفي المحن نرتفع إلى مقام الشكر على نعم الله أن صَبّرَنا وثبّتنا على دينه، ولعل من أهم الفوائد التي يجنيها العبد من المحن تلك الدروس والدرر وكثرة المواعظ والعبر التي ترمي بأثقالها علينا في فترة وجيزة لتصنع منا رجالاً قياديين مجاهدين في ميادين القتال، وعلماء عاملين في ميادين العلم والحضارة، ومشاعل منيرة في ميادين القيم والأخلاق، وحسبنا في ذلك أنّ ذاك الامتحان والبلاء من العذاب والإهانة لأننا كنا ممن يؤمن بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً؛ ولذلك مخطئ من يعتبر أنّ ما مرّ بنا من سجنٍ وتعذيبٍ وما إلى ذلك إنّما هو نقمة من الله، فإني أعتبرها كغيري ممن ذاقها وعاش في كنفها نعمةً كبيرةً أنعمها الله علينا لنستجمع فيها من العلم والأخلاق والمعرفة والصبر والحفظ والخبرة ما لم يجتمع لأحد من أقراننا الذين لم يكونوا معنا ولم يذوقوا مرارة السجون، فضلاً على أنّ الله تعالى عوّض لنا كل ما خسرناه فترة سجنِنَا ورزقنا أضعاف ما كنا نحلم به وبارك لنا فيه، فالحمد لله على ما قدّر وله الحمد على ما أعطى، وله الحمد على كل حال ونسأله أن يديم علينا نعمه وفضله إنه وليّ ذلك والقادر عليه.

خطوات الشيطان

من الأمور الهامة التي لا بدّ من التطرّق إليها والخوض فيها لتوضيح بعض الحقائق وتفنيد بعض الشبه التي لفّقها النظام ولبّسها على الناس، وذلك ببث سمومه في تحريف معالمها وقلب حقائقها لتنفيذ مآربه وتثبيت حكمه، لاسيما أنه من الطائفة العلوية التي لا تمثل إلا نسبة ١١٪ من مجموع السكان، أي حوالي ٢ مليون نسمة عندما تسلّط المقبور حافظ الأسد على الحكم في سورية عام 1970م. وهذا يستدعي تثبيت حكمه ولو بأي شكلٍ من الأشكال، سيّما أنه وصل إلى الحكم بإنقلابٍ عسكري، فكان لابد من وضع خطواتٍ خبيثةٍ من أجل ذلك أفصَح عنها في خِطاباته التي كان يلقيها حتى عندما كان وزيراً للدفاع من أنه:

"سنقضي على الجماعات الإسلامية وعلى المتدينين الذين يشكلون تربة خصبة وقاعدة شعبية، وسنميتهم في السجون ومن خرج منهم بعد ذلك سيعيش منبوذاً في المجتمع"؛ وهذا مصداق الشرط الذي تسلّم به وتسلّط على الحكم بموجبه وذلك بالاتفاق مع القيادات الصهيونية والقوى الكبرى في العالم (الماسونية)، وهو القضاء على الحركات الإسلامية والاعتراف بإسرائيل وحماية أمنها، وفعلاً بعد القضاء على الحركة الإسلامية طُرح مشروع السلام مع إسرائيل، وهكذا بدأ باتخاذ خطوات تسهّل عليه طريقة الوصول إلى ما يصبو إليه، وكان من هذه الخطوات:

١- تصفية الضبّاط السنة البارزين الذين يشكلون خطراً على النظام ولو بعد حين، وتهميشهم ووضعهم في أماكن معزولة وتحت المراقبة ومن ثم تسريحهم.
٢- القيام بتجنيد قسم كبير من الطائفة العلوية في الكليات الحربية المتنوعة ليكونوا نواة الجيش في المستقبل، ومنع ذلك على الطائفة السنية ولو توفرت لها شروط الانضمام لدواع أمنية.

٣- القيام بتوظيف الطائفة العلوية في وظائف الدولة بجميع فروعها وأشكالها وحرمان الطائفة السنية من ذلك، على الرغم من توفر كل المقومات الوظيفية عندهم ، حتى استطاعوا أن يسيطروا على كل الوظائف المهمة والحساسة في الدولة، مع تسريح الكثير من موظفي الطائفة السنية، إضافة إلى أنه من ينهي خدمته في العمل ويخرج للتقاعد من الطائفة العلوية له الحق أن يوظف ابنه مكانه، بينما يُمنع ذلك على الطائفة السنية إلا من كان له ولاءٌ مطلقٌ للنظام، ويكفي دليلاً على ذلك دخولك لأي مؤسسة تريدها في الساحل السوري حيث لا تكاد ترى من الموظفين السنة إلا القليل، والقليل جداً الموالي لهم، وخير مثال على ذلك مصفاة بانياس التي تضمّ ٤٥٠٠ موظف وليس فيها سوى ١٢٠ موظف سني؛ وأما المحطة الحرارية في بانياس فتضم ٨٥٠ موظف فيهم ٤٠ موظف سني فقط؛ وأما المالية فمن أصل ٥٠٠ موظف لا يوجد أكثر من ٢٠ موظف من الطائفة السنية؛ وأما مؤسسة الكهرباء فمن أصل ٢٠٠٠ موظف لا يوجد أكثر من ٣٠ موظف سني... وهكذا.

٤- القيام بتحويل المدرّسين الشرفاء ذوي التوجه الإسلامي إلى وظائف مدنية للتضييق عليهم وتنفيرهم وسحبهم إلى فروع الأمن للتحقيق والمتابعة لإرهابهم.؛ كما تمّت محاربة المدرّسات الشريفات بحجّة الحجاب، وتمّ تحويلهنّ إلى وظائف مدنية لا يستطعن الانسجام فيها، وبالتالي يكون ذلك سبباً لتطلب الاستقالة.

٥- وفي أمر متصل بذلك وهو التثبيت في التعليم، إذ أنه يحتاج إلى مسابقة يُلبّسونها من يريدون، فكم من أستاذ أو آنسة من الفائزين الأوائل لم يأتِ تعيينها لدواعٍ أمنيةٍ، وحتى لو تم تعيينها لا بدّ من أن تتغرّب خمس سنوات في البادية بعيدة عن أهلها مئات الكيلومترات، وهذا يتعارض مع عاداتنا ومبادئنا، وهذا يعلمه النظام، وبالتالي يكون سبباً لتترك الآنسة التدريس وتجلس في بيتها.

٦- ولم يقف الأمر عند ذلك بل تمّ استبدالهنّ بآناساتٍ متبرجاتٍ عارضاتٍ للأزياء ملأن المدارس فسقاً وعهراً وفساداً وتحللاً، حتى وصلت الأمور إلى مرحلة أصبحنا نسمع

الطلاب حتى الصغار منهم يصفون لباس الآنسة الضيقة، ورائحة عطرها، وألوان مساحيق التجميل الذي تتزين بها، فأفسدوا على الطلاب علمهم، وكانوا سبباً في فساد أخلاقهم، بل وقضوا على التعليم فضلاً عن استدراج كثير من الأساتذة الذين لا يتملّكون أنفسهم أمام هذه الفتن، حيث انخرط كثير منهم في مهاوي الفحش والرذيلة حتى أصبحت مدارسنا وكأنها مسرحٌ لعارضات الأزياء.

٧- والتركيز الكبير كان على الجيش وتطبيعه بل و تطويعه كُما يريدون وعلى التعليم وتوجيهه كما يحبون، كما السيطرة على الوظائف الحكومية والمدنية وتسهيل الاستثمارات لهم بالشروط التي تناسبهم، وفتح البنوك أمامهم وتشجيعهم على سحب الأموال منها بأي سبب يريدون، فلا حرمة عليهم إذ لا دين لهم، وبالتالي فإنهم وضعوا أيديهم على كل شيء في البلد، فشاعت الفوضى والمحسوبية، وانتشر الفساد وكثرت الرشاوى التي لا يمكن لك أن تحصل على شيء "هو حق لك بالأصل...!" إلا بها، كما تختلف قيمتها بحسب الأمر الذي تطلبه، فلكلٍ تسعيرته، والويل لمن يتذمر من ذلك إذ لا مكان له في هذا المجتمع لأنه أصولي متطرف أو سلفي منحرف . حسب زعمهم . يجب أن يكون مكانه في السجون!

٨- الموافقات الأمنية: وهذه الخطوة من أخطر الخطوات التي قام بها هذا النظام الجائر، فكل شيء تريد أن تقوم به في حياتك مثل (وظيفة، جواز سفر، شهادة سَوق، ترخيص معهد أو مدرسة أو روضة، زواج.....)؛ كل ذلك يحتاج إلى دراسة أمنية عنك وعن عائلتك وأقربائك الأصليين والفرعيين، وباختصار عليك أن تتقبل الجواب الواضح وهو (مع عدم الموافقة لدواع أمنية...!)، وبهذا الأمر سيطروا على مفاصل البلاد من جهة الوظائف وغيرها، وأما سيطرتهم على مفاصل الجيش فكان بوضع يد المقبور حافظ الأسد عليه وحده دون سواه، وهذا ما ورد في مذكرة عبد الحليم خدام نائبه آنذاك عندما وجّه له الكلام قائلاً: "إن الجيش لي ولن أسمح لأحد بالتدخل به"، وهذا ما كان على أرض الواقع بالاتفاق مع مساعديه وأقربائه العميد

أحمد عبود رئيس فرع المعلومات في شعبة المخابرات فرع /٢٩٣/ والذي بقى رئيساً لهذا الفرع لأكثر من ٢٥ عاماً، مع العماد علي دوبا الذي تسلّم شعبة المخابرات بعد إبعاد اللواء حكمت الشهابي عنها، فيكونوا بذلك قد حفظوا أسرار الأسد التي سيقوم بها، وإليك مثال على ذلك: فإذا ما أُعلن عن قبول دفعة للكلية الحربية من جميع المحافظات وتقدّم العدد الكبير منهم، ومعلوم أنّ نسبة الضباط العلويين هي ١٥٪ هنا سيكون الانتقاء والقبول على الأساس الطائفي، حيث يفاجئ الجميع أنّ نسبة الضباط العلويين وصلت ٩٠٪ بينما نسبة المقبولين من الطائفة السنية وبقية الطوائف لم تتجاوز١٠٪ وقد يقول قائل إنّ العلويين يشكّلون النسبة الكبرى في الساحل السوري، وهذا الكلام غير صحيح فهم لا يشكلون أكثر من ٥٠٪ في الساحل، ولو افترضنا ذلك فما هو مبرّر ذلك العمل في المحافظات الداخلية التي لا يوجد فيها أي عائلة علوية؟! حيث ترى جميع ضباط الجيش في تلك المحافظات منهم، وذلك بموجب الخطة التي قام بها العميد أحمد عبود بالضغط على وزير الداخلية آنذاك بإخراج سندات تمليك وإقامات بل وولادات حتى أصبحوا من سكان هذه المحافظات، ثم إنشاء مساكن لهم في كل المحافظات ليكونوا في المستقبل كياناً ثابتاً من كيانات تلك المحافظات، وهذا واضح وضوح الشمس في كبد السماء، وما ينطبق على الكلية الحربية ينطبق على جميع الكليات بل أغلب الوظائف الحكومية من مؤسسات وجامعات ومدارس وبلديات، حتى أصبحنا نسعى لواسطة من أجل تعين مستخدم في المدرسة لأن هذا الأمر أصبح من حقهم، ولك أن تعترض على ذلك!

ولا بدّ من الإشارة إلى أنه من أراد أن يقوم باستثمارات من رجال الأعمال لا بدّ له من أن يدفع نسبة لا بأس بها من أرباحها وبشكل دوري لأزلام الأسد، أو أن يكونوا شركاء معه في ذلك، وإلا "مع عدم الموافقة"! كما أنّ هناك بعض المؤسسات مرهونة لهم دون

غيرهم لاستنزاف أموال الناس والتسلّط والتنصت عليهم، وهي مؤسسة الاتصالات التي حاولت بعض الشركات أن تدخل هذا المجال في بلدنا لكن دون جدوى.

ومن المهمّ ذكره أننا عندما نطلق كلمة الطائفة العلوية لا يعني أنها كلها بهذا المستوى من الوظائف، إلا أنّ أقلهم امتيازات كأحسن واحد من الطائفة السنية.

وهكذا بدأت الأمور بهذا الشكل وأخذت بالاتساع وما زالت حتى ضاقت الأرض على الناس بما رَحُبت، إلى أن خرجت طبقة من هذا الجيل الواعي تصبو إلى حياة كريمة تليق بها وبأخلاقها التي تربّت عليها فما استطاعت صبراً أمام هذه المفاسد الاجتماعية والانحلالات الأخلاقية، فسعت للتغير أوعلى الأقل للتخفيف من هذه المفاسد، ألا أنهم تفاجأوا أنّ هذا النظام استدرجهم إلى ساحة القتال بشتى الوسائل ليستطيع بذلك أن يؤلب عليهم الرأي العام المحلي والدولي ويلصق بهم تهم الإرهاب، ويلفّقَ لهم من الجرائم التي تحلو له بعد أن غيّبهم في ظلمات السجون، مستخدماً وسائله الإعلامية المغرضة في تشويه صورتهم أمام العالم وإبرازهم على أنهم خونةٌ مجرمون! ومن كثرة خبثه ودهائه وحقده بل وخبرته بخطرهم سنّ القوانين التي تستأصل شأفتهم وتلاحقهم وأولادهم وأزواجهم وذريتهم حتى العائلة التي ينتسبون إليها، وذهبت تقاتلهم حتى على أرزاقهم، من خلال وضع اليد عليها وعدم مشروعية التصرّف بها بعد أن هجّرتهم من أوطانهم، فباتوا لاجئين في بلدان أخرى، وقد نجحوا في ذلك أمام عالم متواطئ متخاذل تسود فيه شريعة الغاب، فيأكل القوي فيه الضعيف، ويتسلط المتكبر فيه على المستضعَف، لكن ما عرف هؤلاء الطغاة أنّ من يقوم بهذا العمل لا بدّ من أن يواجَه من قبل رب الأرباب الذي سيكون لهم بالمرصاد كما كان لغيرهم من قبلهم، فما قصة فرعون عنهم ببعيد حيث قال فيه رب العزّة: "**إنّ فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبّح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين * ونريد أن نمنَّ على الذين استُضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين * ونمكّن لهم في الأرض ونُري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون**".

وحقيقة الأمر فإن كلّ ما أُلصق بالإخوان المسلمين من تُهمٍ عارٍ عن الصحة وهو محض افتراء، فهم من يعلم حدوده فيقف عندها ولا يتعداها، ويعرف حدود غيره فيحترمها ولا يتجاوزها، فلا يمكن لهم أن يقتلوا أحداً أو أن يعتدوا على أحد كما زعم النظام، وهذا ما نشهد به أمام الله وأمام الناس والتاريخ، فقد أمضينا معهم عشرين عاماً في أحلك الظروف وأسوأ الحالات، فكانوا من أفضل الناس خُلُقاً وعِلماً وورعاً وزهداً وتقوى، وهذا لا يناسب النظام الجائر فكان لا بدّ من تصفيتهم تحت أي ذريعة.

وخلاصة القول: إنّ الذي يتحمّل أحداث الثمانينات إنما هو المقبور حافظ الأسد ونظامه الفاسد، وهذه شهادةٌ أمام التاريخ نقدّمها لأننا عشناها حياةً واقعيةً مِلؤها الظلم والطغيان والاستبداد، كل هذه الأسباب التي تعرّضنا لها باختصارٍ شديدٍ من أجل تعميق الطائفية وزرع الفتنة بين أفراد الشعب الواحد وإضعافه وسهولة السيطرة عليه، وسحق الطائفة السنّية التي يعتقد أنها قد تودي بحياته وحياة حكومته وطائفته وحزبه.

ما بين الدولاب والقيد

قبل أن نبدأ الحديث عن مشوار السجن لا بدّ لنا من وقفةٍ قصيرةٍ مع بعض القصص المثيرة المدهشة، قصص التاريخ التي مُورست علينا في أقبية الفروع الأمنية وهي بالمئات إن لم تكن بالآلاف، وقد تختلف من فرعٍ لآخر ومن مكانٍ لآخر ومن شخصٍ لآخر، لكنها تحمل نفس المضمون والهدف لأنها مولودةٌ من أمّ واحدة.

فمن هذه القصص ما حدث مع بعض شباب بانياس عام ١٩٨٠م. حيث كثرت الاعتقالات إثر قانون ٤٩ القاضي بإعدام كل من ينتمي إلى تنظيم الإخوان المسلمين، فطالت أكثر من ستين شاباً من خيرة شباب بانياس، جُلّهم أطباء ومهندسون وأساتذة وطلبة، كما عشرات الآلاف من معتقلي المدن السورية بشكلٍ عام.

وما كنا نحسب أن الأمر بهذه الصعوبة في بداية الأمر، إذ كنّا صغار السن في مقتبل العمر لا نفهم من السياسة شيئاً، إلا أننا نشأنا في بيئةٍ إسلاميةٍ محافظة وهذه تهمة بحد ذاتها آنذاك، فكلّ من يدخل مسجداً أو يحضر درساً دينياً أو يُطلق لحيةً فهو مشبوهٌ تنبغي مراقبته ومتابعته، وهكذا حتى أُحضرنا إلى مكتب التحقيق ومُورست علينا أساليب الترويع والتخويف تارةً والقتل والإهانة تارةً أُخرى، حتى كتبوا التّهم التي يريدونها، سيّما أننا لم نكن على درجةٍ من الوعي الثقافي والديني ما ندافع به عن أنفسنا آنذاك، وما شعرنا إلا أننا أصبحنا من قيادات الإخوان المسلمين حسب زعمهم، مع العلم أنّ الكثير منّا لم يكن منظّماً ولم يعرف عن التنظيم شيئاً!

ومن غريب ما حدث مع أخٍ لنا أنّ المحقق سأله قائلاً:

. من أفراد خليّتك؟

فأجابه:

. وهل نحن خلايا نحل؟!

فقال له:

. اعترف يا..... وإلاّ سأقوم عليك و....

فأجابه:

. أنت اسألني أسئلةً واضحةً؟

فقال له:

. من أفراد أُسرتك؟

فأجابه:

. أفراد أسرتي أمّي وإن أردت اسمها ففلانة، وأختي الكبرى واسمها فلانة، وأختي الأصغر واسمها.....

فقام إليه المحقق وصفعه صفعةً لم يتوقع أن يتلقاها يوماً، وقال له:

. أتهزأ بي يا.....؟

فأجاب الأخ:

. هذه أسرتي وهذه إجابتي!

فقال له:

. أريد أسرتك التنظيمي يا.....؟

فأجابه:

. وهل يُقبل أمثالي في تنظيم الإخوان المسلمين؟ فهم صفوة المجتمع من أطباء ومهندسين وأساتذة وأما أنا ما زلت شاباً صغيراً.

فقال له:

. لقد علمّوك يا.....

وكتب المحقق ما يريد، ثم أمر الأخ أن يوقّع على ما كتب.

وكثيرةٌ أمثال هذه القصص التي جعلت من صاحبها ضحية سجنٍ لفترةٍ طويلة.

وما حدث معي شخصياً أنني كتبت على لوح المدرسة عبارة "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، والآية القرآنية (فاصدعْ بما تؤمرْ وأعرضْ عن المشركين)، وكان ذلك في فترة الاستراحة بين الحصص الدراسية، وكنت أبلغ من العمر خمسة عشر عاماً، لأُحاسب عليها بعد سنتين أمام المحقق الذي سألني:

. من كلّفك بذلك؟ ولماذا كتبتها؟ وكم قبضت عليها من المال؟

وما إلى ذلك من الأسئلة....

وأنا حقيقةً لم أكتبها بتكليفٍ من أحدٍ سوى أننا كنّا نحمل عاطفةً إسلاميةً بريئةً تندفع لأي عملٍ يعبّر عن توجهها، إلا أني لم أفلح في إقناع المحقق بذلك فكتب ما أراد، وكان نتيجة ذلك أن أتحمّل مسؤوليتها السجن اثنا عشر عاماً، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

ولا تستغرب أخي القارئ حكايتي هذه وحكاية هذا الأخ الكريم التي هي أغرب من ذلك، فمن المضحك المبكي أنّ شاباً سُجن بتهمةٍ هي أقرب إلى الطرفة لأن شرّ البليّة ما يُضحك، حيث أُمر هذا الشاب أن يبصق على أخٍ شهيدٍ جرّه الجيش السوري في الشارع

بعد أن قتله، وفعلاً بصق هذا الشاب لكن ليس بالشكل الذي يُرضيهم، فكانت تهمته: " تَفَلَ وكان ريقه ناشفاً "...! وسُجن على إثرها بضع سنين.!

صدّق أو لا تصدّق! هل هذا من العدل أم أنه القانون الطائفي الذي حكم سوريا بقيادة الأسد أربعين سنة؟!

كما من عجائب القصص أنّ أخاً لي من مدينة جسر الشغور ساقه الأمن من منزله في ساعةٍ متأخرةٍ من الليل إلى فرع الأمن العسكري ولم يدرِ ما السبب الذي اقتيد من أجله؛ وأما المهزلة الكبرى أنّ ضابط الأمن الذي اعتقله قال لأمه لمّا رآها تبكي عند خروجه من المنزل: لا تبكي يا خالة سؤالٌ ونعيده إليك. وهنا يظهر الحقد الدفين لآل الأسد تجاه المسلمين، لأنّ السؤال بقي أربعاً وعشرين سنة ولم ينته حتى بعد خروجه، والغريب أخي القارئ أنّ التّهمة الموجهة إليه . بعد أن أقسم بالله ألا يقول إلا الحق . كان حضور درس قرآنٍ في الجامع قبل سنةٍ من اعتقاله! فهل يوجد قانونٌ في الكون عبر التاريخ يمتلك شيئاً من الأخلاق والقيم الإنسانية يحكم شاباً من أجل درس قرآنٍ أربعاً وعشرين سنة؟

نعم إنه نظام الأسد القائم على الحقد والضغينة والقتل والإرهاب، مثله في ذلك كمثل فرعون الذي رأى رؤيا أنّ طفلاً سيولد تلك السنة يكون زوال ملكه على يديه، فما كان من فرعون إلا أن أصدر قانوناً يقضي بقتل كل طفل يولد هذا العام....

فما ذنب هؤلاء الأطفال الذين قُتلوا على يد ذاك الطاغية؟

إنه الكِبر والجبروت وحبّ السلطة والزعامة والتسلط على رقاب الناس، وكذلك فعل الأسد بل كان أكثر منه تكبراً وتسلطاً وفسقاً وفجوراً.

وأما ذلك الشاب الذي حلّ ضيفاً على فرع إدلب حيث اسُتقبل استقبال الأبطال فقد وضُعت يداه خلف ظهره وقُيّدت بحبلٍ قويٍ وعُصبت عيناه وسيق إلى غرفةٍ تحت الأرض وبدأت أساليب التعذيب تلعب في جسده، من ضربٍ بالأكبال والكهرباء، ووضعه

على بساط الريح وكرسي الاعتراف، هذا الأخ يتكلم بكل حرقةٍ عما جرى معه متعجباً من قساوة المعاملة ووحشيتها في فروع الأسد وعلى أيديهم فيقول: كانوا يبللون جسدي بالماء ويضعون سلك الكهرباء في أعضاء جسدي وفي أصابع يدي وقدمي وكأني في حياةٍ ثانيةٍ ملؤها الكوابيس وصراخي يهزّ جدران الغرفة؛ وبدأت توجّه لي تهم لم أسمع بها من قبل فكان جوابي الإنكار، فيزداد العذاب ونعود إليه من جديد، وكل إعادةٍ للتحقيق تحتاج من ساعة ونصف إلى ساعتين من التعذيب، ثم أعود إلى الزنزانة التي تبلغ مساحتها ٨٠×١٨٠سم٢ فيها بطانيةٌ متسخةٌ مما أصابها من البول والغائط نتيجة عدم السماح لساكنها بالخروج لقضاء حاجاته فيضطر لقضائها في تلك الزنزانة، وهكذا ستمضي مدّة المكوث في الزنزانة ثلاثة أشهرٍ كنت قد أُنهكت من شدة التعذيب حتى فقدَتُ السيطرة على أعصابي، فما كان مني ذات مرّةٍ بعد أن تعرضت لتعذيبٍ شديدٍ إلا أن شتمت المحقق وشتمت رئيسه وقلت له: "أنتم مجرمون وسوف نحاربكم حتى نخلّص البلد من بطشكم وجرائمكم"؛ وكانت هذه من الأسباب التي ساقتني إلى سجن تدمر بعد أن أنهكوني من التعذيب.

واسمع إلى هذه القصة الرهيبة التي حدثت مع أخٍ من مدينة بانياس، وكان يبلغ وزنه آنذاك عند دخوله الفرع ٨٦ كغ، إلا أنّه خرج من الفرع بعد ثلاثة أشهر بوزن ٥١ كغ وذلك من شدة التعذيب وكثرته، لأنهم يريدون منه اعترافاً وهو يمتنع، وإليك ما جرى معه حيث أرادوا أن يعذبوه بما يسمى "تعليقة الفروج"، وهي وضعيةٌ قاسيةٌ جداً كما في الشكل المرسوم، حيث تنصب الركبتان بعد ضمّهما وتُمدّ إليهما اليدان ثم تُلزم بملزمةٍ من حديدٍ، ثم تُربط بحبلٍ إلى السقف ليصبح كالفروج المعلّق؛ إلا أنّ هذا الشاب أمام هذا الوضع الرهيب التجأ إلى الله بكل صدقٍ وإخلاصٍ قائلاً: "رباه من لهذا الحبل سواك"؛ فما كان من الحبل إلا أن انقطع، ولحسن حظّه فقد كان تحته دولاب وقع عليه، ولو كان غير ذلك لكان قد مات من سقوطه على البلاط، إلا أنّها رحمة الله التي طلبها فأتته، فاندهش السجّانة من ذلك الأمر وقالوا له:

. كيف قطعت الحبل، وبماذا دعوت؟

فقال لهم:

. الله الذي قطعه وليس أنا.

فانهالوا عليه ضرباً حتى سقط مغميّاً عليه!

كثيرةٌ هي القصص التي تشيب لها الولدان من جهةٍ ويندى لها جبين البشرية من جهةٍ أخرى، كل ذلك كان بعيداً عن تصوراتنا تجاههم، فلم نكن يوماً ما نظنّ أنّ حكومتنا تفعل بأبنائها وتعاملهم بهذه الهمجية، وما زلنا نحسن الظنّ بهم ونحسب أنّ أيامنا معدودةٌ عندهم، فما هي إلا "فركة دان" كما يقال، إلا أنّ آمالنا خابت لما سمعنا أصوات الشتائم والسباب في ساعة متأخرة من الليل وذلك مطلع شتاء ١٩٨٠م.، وما هي إلا لحظاتٌ والسلاسل والقيود قد جُهّزت ، تُرى ما الأمر؟ كلٌ منّا يتساءل في غرابةٍ ورعبٍ، ليس في الأمر أيّ بادرةٍ تدل على خيرٍ ينتظرنا، إلا أننا لم نكن مهيئين، لذلك طُلب من الجميع حزم أمتعتهم لُنساق بعد ذلك كما تساق النعاج مكبلين بالسلاسل والقيود معصوبي العيون، واللكلمات واللطمات والرفسات تنهال علينا من كل جانب،..... يا الله... يا الله..... نادى الجميع والتجأ إليه وأناب وتاب، فما كان يواسينا في مصابنا هذا إلا أننا سُجنّا من أجل ديننا حيث كما يقال "الفزع يُطيّر الوجع"، لينتهي بنا المطاف إلى مكانٍ تحت الأرض أُنزلنا إليه بعشرين درجة، وعلمنا فيما بعد أنه فرع التحقيق العسكري، وهنا يبدو أننا سنتعرّف على مرحلةٍ جديدةٍ مما يحدث في أقبية الفروع الأمنية من أنواع التعذيب والتنكيل والإرهاب، ولم ندرِ ما السيناريوهات التي ستمَارس علينا، حيث أدركنا تماماً أننا أصبحنا مجرمين بكل ما تعنيه الكلمة، إذ لا بدّ لك عند دخولك من خلع الثياب كاملةً كما ولدتك أمّك بحجة التفتيش، وذلك ليضحكوا عليك ويسخروا

منك وليُسمعوك من الألفاظ ما لم تسمع في حياتك، وليس لك أن تتكلم أو تعترض لأن ذلك سيُعرّضك إلى الأسوأ، وما عليك إلا تسليم الأمر إلى الله.

ولم ينته الأمر عند ذلك، فأمامك الحلاقة التي تغّير من شكلك وتُشعرك بالإهانة لأول مرّة، ومن ثم يعلّقون لك لوحةً في صدرك سوداء وقد كُتب عليها اسمك بهذا الشكل: "المجرم..فلان".... ثم تقف أمام الكاميرا لتخرج أمامهم بصورة مجرمٍ حقيقيٍ يسوّقونها كما يريدون؛ كلّ ذلك وما زلنا في الساعات الأولى من النهار الأول، لنرى أنفسنا أخيراً في الزنازين متفرّقين كلّ واحدٍ منّا في زنزانةٍ عليه أن يتحمّل سوء العذاب لوحده ليس له إلا الله، فلا الساعات تمرّ ولا الأيام تنقضي، ولا نعرف الليل من النهار ولا حول ولا قوة إلا العلي العظيم.

أيام معدودات أمضيناها في هذه الظلمات الظلماء لنُنقل بعدها إلى مهجع رقمه ١١ أمام مكاتب التحقيق وساحات التعذيب، لنتعرّف على حقيقة ما يجري في أقبية الفروع، فلا يمكن لك أن تنام إلا على أصوات التعذيب ولا تستيقظ إلا على ذلك، وكل أحوالك في النهار بين سماعٍ لأصوات التعذيب وبين دوي السياط على الظهور العارية.

ولا بدّ لنا من أن نذكر بعض القصص التي شاهدناها بأعيننا من طاقةٍ لباب المهجع الذي يطلّ على مكاتب التحقيق لنرى مرّةكيف يتناوبون بالضرب على رجلٍ وهو واقفٌ دون أن يُسمع له صوتٌ حتى عددنا له ٨٠٠ كرباج وبعدها سمعنا صوت انفجار فنظرنا فإذا به ملقىً على الأرض، وكان ارتطام رأسه بالأرض هو ما أحدث هذا الصوت، فقد سقط شهيداً ليُرّحل إلى مكان آخر.

كذلك ذاك الشاب الذي عُرّي من ملابسه وصُلب على لوحٍ خشبِي، فجعلوا يديه ورجليه منفرجاتٍ ومثبتٌ بشكلٍ لا يستطيع الحَراك بأي شكِل من الأشكال، والسياط تنهال عليه

من كل جانبٍ وبكل قسوةٍ ووحشيةٍ، ولا نسمع منه إلا كلمةً واحدةً يرددها بين الفينة والأخرى وهي "وحّدوه"، وهكذا حتى قضى شهيداً!

كما ذاك الشاب الحموي الذي تمّ التحقيق معه أمامنا تماماً وكانت تهمته كما سمعنا بأنه يحمل هويةً مزورةً وهم يريدون أن يعرفوا اسمه الحقيقي، ومازالوا يضربونه حتى استشهد وهو مصرّ على أنّها هويته وهذا اسمه الحقيقي، وعندما خرج أحدنا لتنظيف الغرفة التي تمّ قتله فيها إذا بدمه مبعثر هنا وهناك حتى السقف قد تلوّن بدمه! وهذه بعض القصص على سبيل المثال لا على سبيل الحصر؛ إنها مرحلةٌ جدٌّ قاسيةٍ، أرادنا الله أن نكون فيها شهوداً على نظامٍ جائرٍ لا يعرف الإنسانية ولا يُقيم للأخلاق أيُّ مكانة.

حتى على سبيل المستوى المعيشي فلك أن تأكل بقدر ما يكفيك حتى لا تموت، فلا الطعام طعامٌ ولا الشراب شرابٌ، ولا تعرف متى يأتيك الفطور أو الغداء أو العشاء، ولا تعرف أوقات الصلاة التي ستصليها بالخفاء، لأنّ كل ذلك من الموبقات التي يحاسب عليها النظام!

وأما في الحياة اليومية فأنت معرّضٌ لدخول الجلاّدين عليك في أي لحظةٍ لقضاء فترة تسليةٍ بالكرابيج تارةً والركل والرفس تارةً أخرى، أو بإخراج الجميع إلى البهو للزحف والدحرجة (الدعكلة) والتعذيب بالسياط وغيرها؛ وهذه حياةٌ يوميةٌ تتكرر معك طيلة وجودك إضافةً إلى ما تسمعه من زملائك الذين يقبعون في الزنازين والمنفردات الصغيرة والذين يحتاجون إلى قضاء حاجة أو لأي شيء آخر فتسمع السُباب والشتائم تُمطر عليهم كوابلٍ من الماء في يومٍ شديد المطر.

وهكذا نعيش ويعيش كل من يحلّ نزيلاً في تلك الفروع ما بين خوفٍ ورعبٍ من هؤلاء الظلمة، وما بين أملٍ ورجاءٍ من اللهِ بأن يجعل لنا من ذلك مخرجاً وفرجاً، إلا أنّ أمر الله لا بدّ نافذٌ، وفي ساعة متأخرةٍ من الليل وإذ بالأبواب تُفتح وأصوات الشتائم والسباب

تعلو، والكرابيج والسياط بالأيدي وعلى الجميع الاستماع: "احزموا أمتعتكم أيها الخونة..."! ويبدو أنّ المشهد الذي مرّ معنا من قبل عند نقلنا إلى هنا تكرّر الآن، فهذه بوادر نقلةٍ إلى مكانٍ آخر وليست بوادر إخلاء سبيل، إلا أنّ هذه النقلة أشدُ قسوة وأكثر همجيةً، فما أن قيّدونا وعصبوا لنا العيون حتى أنهكوا أجسادنا من شدة الضرب، وكنا نطلب من الله الخلاص منهم لنستريح من أذاهم، إلا أننا تفاجأنا أنّ من رافقنا في سيارة النقل هم أسوأ منهم وأكثر شراسةً، وما كنا ندري في تلك اللحظة إلى أين المصير.

وما هي إلا ساعاتٍ حتى وصلت بنا الحافلة إلى مكانٍ ذي سمعةٍ سيئة، ولا بدّ لمن دخل هذا المكان من حفلة استقبالٍ تليق به فاسمع يا أخي عن تلك الحفلة التي يحدثنا عنها أخٌ لنا ، فيقول:

سأحدثكم عن حفلة استقبالٍ لم تعهدوها أو تسمعوا عنها أو بمثلها من قبلُ حتى ولم تتوقعوا شكلها ولا كيفيتها.

فإن تخيّلتم أنفسكم في صالةٍ للأوبرا يُستقبل روادها بالورود والرياحين وتُطرب آذانهم بسماع الموسيقى والأصوات الجميلة فما هو ذلك.

وإن تخيّلتم حفلة عرسٍ لعروسين لديهم الأمل أن يجعلوا من الحياة مطيةً للوصول إلى أحلامهم وبناء مستقبلهم القائم على الحبّ فلن يكون ذلك أيضاً.

وإن تخيّلتم حفلة تكريمٍ للمتفوقين في الدراسة كالطب والهندسة والعلوم الأخرى حيث تُوّزع الهدايا المناسبة لكلّ واحدٍ حسب درجته فلن يكون ذلك أيضاً.

أما وإنك لم تسمع ولن تسمع عن حفلةٍ العازف فيها زبانية الأسد المتسلحون بسياطٍ كأذناب البقر، وآلة العزف فيها أجساد الأطهار من شباب المسلمين الذين أرادوا بناء هذا الوطن على القيم والأخلاق السامية، والتي أوصلها النظام إلى أسفل دركاتها بقيادة حزب البعث ومن والاه.

نعم، لقد بدأت هذه الحفلة منذ خروجنا، حيث كُبّلت أيدينا بقيودٍ حديثةٍ تُوضع في معصم اليد، كلما حركّت يدك كلما عصّت عليك أكثر، كما عُصبت عيوننا حتى لا نرى إلى أين المصير، وهكذا سار الركب بنا وبمرافقةٍ من أمامنا وحمايةٍ من خلفنا ورؤوسنا منخفضةٌ إلى الأسفل وظلام الليل الأسود يقول لنا قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، لأنّ ما يُخبّأ لكم أكبر من ذلك بكثير!

وفي الطريق وقفنا في فرع الأمن العسكري بحمص فخرج زبانية الأسد لاستقبالنا في الباص ونعالهم في أيديهم، وبدؤوا بالضرب على وجوهنا ورؤوسنا دون رحمةٍ أو شفقةٍ حتى وصلنا إلى سجن تدمر العسكري صاحب السمعة السيئة، حيث وقفت سيارة النقل أمام الباب وإذا برجال الشرطة العسكرية جاهزين ومستعدين لاستقبالنا، فما أُنزلنا من السيارة حتى أخذت اللكمات والرفسات تنهال علينا من كلّ مكانٍ، بل ضربةٌ تدفعنا نحو اليمين وأخرى نحو الشمال ورفسة تُدخلنا في الغرفة وأخرى تُخرجنا منها، وبين هذه اللكمة وتلك الرفسة تأتيك ضربةٌ لم تكن تحسب لها حساباً فتطرحك أرضاً، وهكذا حتى شعرنا أنّ أمعاءنا قد تقطّعت من شدة اللكمات والرفسات التي تلقّيناها ونحن ننتقل من غرفةٍ إلى أخرى، حتى تجاوزنا خمس غرفٍ كانت من أصعب ما مرّ بنا من إهاناتٍ وتعذيبٍ، لنخرج بعدها إلى باحةٍ أجلسونا فيها على بعضنا والغانم فينا من يستطيع أن يحمي رأسه حتى لا يكون عرضةً للسياط والكرابيج، ثمّ بدؤوا بتسجيل أسمائنا فرداً فرداً، ثم نقلونا إلى ساحةٍ كبيرةٍ فظنناً أنّ الأمر قد انتهى، وأنّ ما حدث معنا إنّما هو حفل الاستقبال التي وُعدنا بها، إلا أنّ الأمر سرعان ما تبدّد، واتضّح لنا عندما أُمرنا أن نقف على الحائط بجانب بعضنا، إذ نظر أحدنا بطرف عينيه فإذا بمجموعةٍ من زبانية الأسد يحملون العصي والكرابيج، وهنا بدأت الحفلة وأخذوا بتفتيش ملابسنا وحقائبنا وكلّ ذلك مرفقٌ بالضرب العشوائي والسباب وأنواع جديدةٍ من الشتائم؛ وبعد أن أُمرنا بخلع ثيابنا عراةً وسِيق كلّ واحدٍ منّا إلى الدولاب بدوره وبدأ الضرب المبرّح من غير شفقةٍ ولا رحمةٍ من قلوبٍ قاسيةٍ أقسى من الحجر لا تعرف إلا الحقد، ألهبت ظهورنا بالسياط القاسية، فسالت منها الدماء واسودّت منها الأرجل، والألسن

تنادي مستصرخةً ولا مجيب إلا الله ولا راحم إلا الله ولا مغيث إلا الله، إنه نعم المولى ونعم النصير.

ومن بين إخواني أخذني شرطيّ من على الحائط من كتفي وقال اتبعني منبطحاً، فبدأ هو ومن معه بضربي وركلي ورفسي أينما وقعت أرجلهم كانت الضربة، ومن كثرة الألم تذرعت أني قد خرست فلا أستطيع الكلام (ولم أدرِ أكان ذلك الفعل تمثيلاً أم أنه كان حقيقةً آنذاك) حتى جاء مساعد الانضباط، وقال لهم دعوه، وأمرني بالعودة إلى مكاني فلملمتُ لباسي وركضتُ مسرعاً حتى لا يطالني أحدٌ مرّة أخرى.

وهكذا استمرت الحفلة قرابة الساعتين مضت في الصّياح والصّراخ والعويل لننتهي بعدها إلى غرفةٍ كبيرةٍ تسمى "الورشة"، وهي بمساحة ٨×٨ م٢ تأكدنا فيما بعد أنها تُستعمل لتجميع من يُراد إعدامهم على حبال المشانق في هذه الساحة.

انتهت الجولة مع زبانية الأسد حوالي الساعة العاشرة صباحاً وأُدخلنا إلى هذه الغرفة وظننّا أنّ الأمر قد انتهى، وأخذ كلّ منّا يلملم جراحه ويتعّرف على بقية زملائه الذين تغيّرت ملامحهم من التشويه الذي أصابهم من الركل والرفس، وأصبح على الجميع مواساة بعضهم البعض، فالكلّ في المصيبة سواء، ولعل بعضهم تكون مصيبته أكبر من بعض بسبب جسمه المميز أو شكله الغريب أو لكبر سنه أو لشهادته الجامعية إن عرفوا أنه رجلٌ متعلمٌ، كما حدث مع أخينا الكبير المتعلم وكان آنذاك نقيب المحامين في المنطقة الشرقية بدير الزور واسمه زكريا عبد الجبار، والذي ناله من العذاب ما لم ينل أحدٌ منا نحن الشباب، فكم كان يصيح ويستغيث ويطلب منهم التخفيف إلا أنهم لم يحترموا كبر سنه ولا علمه، بل يزيدون عليه ضرباً ويقولون له بعد أن علموا أنه نقيب المحامين: أما يكفيك أنّ الرئيس قد أعطاك هذه البطاقة (بطاقة نقيب المحامين)؟!

كما ذاك الذي وضُع في الدولاب وأخذت السياط تعمل في جسده وعلى رجليه حتى أخذ يصيح ويستغيث قائلاً: دخيلك يا حضرة الرقيب؛ فازداد الضرب عليه فقال: دخيل الله. فأجابه: وأين الله ليخلّصك! فنادى: دخيل محمد. فأجابه: وأين محمد ليخلّصك! ومازال الضرب يزداد عليه بشدةٍ وقساوةٍ، فقال: دخيل حافظ الأسد. فأجابه: اعلم أنّ حافظ الأسد هو من أوصاني بقتلك!

كنا نظن أنّ الأمر قد انتهى بهذا الشكل إلا أننا تفاجئنا في صباح اليوم الثاني أنّ للأمر بقيةٌ هي أشدّ شراسةً من الأولى، حيث فُتح باب الغرفة بهمجيةٍ وألفاظ لاذعةٍ يندى لها الجبين، وأُخرجنا إلى الباحة بطريقةٍ وحشيةٍ مذعورين لا نعرف كيف وإلى أين نسير؛ فقال زعيم الزبانية: اجلسوا جاثياً... فجلس الجميع بجانب بعضهم منكسي الرؤوس والظهور، وأخذت السياط تلعب بأجسادنا، وشعرنا بأنهم يأخذون كل خمسةٍ منّا مع بعضهم، إلى أين؟ لا ندري... مازالوا قريبين منّا فأصوات تعذيبهم واضحةٌ، عندها علمنا أنّ حفلةً جديدةً تعدّ لنا يبدو أنّها أصعب من الأولى بكثير، إنها حلاقة الاستقبال التي ستزيد من تشويهنا، لكن لا ندري كيف ستكون وما هي ماهيتها وأدواتها، حتى إذا جاء دورنا للحلاقة قمنا بإيعازٍ يُلهب الظهور، فكل من يُضرب على ظهره فقد جاء دوره، وهكذا أصبحنا بين أيدي الحلاقين بوضعية الجلوس جاثياً والأيدي وراء الظهور والعيون مغمضةٌ والرؤوس منكسةٌ والدور الرئيسي في هذه الفترة للحلاق (الذي جيء به من سجن الفرار ويجب أن يكون من الطائفة العلوية حصراً) ولك أن تتخيل عن شخصية رجلٍ يفرّ من الجيش وعن مدى الأخلاق التي يتمتع بها، فلا غرابة إن قلت لك أنّ الحلاقين كانوا أكثر حقارةً ونذالةً وحقداً علينا، وكان ذلك واضحاً في حلاقتهم لنا، حيث كان الأخ فينا يستغيث عندما يأتي دوره للحلاقة، لأنّ نصف شعره سوف يُنتزع انتزاعاً والنصف الآخر يُحلق حلقاً، فمن كان يستطيع أن يصبر على ذلك يكتم صوته ولا يصيح من شدة الألم، ومن لم يستطع تحمّل ألم انتزاع شعره كان يصيح لعلهُ يخفف عنه قليلاً، إلا أنّ ذلك كان يزيد عليه إذ أنّ الحلاق

يشتكي عليه للشرطي الذي ينتظر انتهاءه من الحلاقة ليبدأ بحفلةٍ كنا نسميها حفلة "نعيماً... "!

فهي حفلةٌ لا بدّ منها بعد الحلاقة وأثناءها، فما بالك بمن اشتكى عليه الحلاق فإن حفلته ستكون مدعومة، وهكذا بعد ساعتين أو ثلاثة تنتهي هذه الحفلة بعدما تخلّف وراءها الكثير من المصابين والمشوّهين، حتى كأنك عندما تنظر إلى كثير منهم تشعر وكأنك تنظر إلى لوحة رسمٍ كاريكاتيريةٍ، وعندها يمكن أن تسأل نفسك: هل أنا في حلمٍ أم حقيقةٍ؟ فليست هذه الوجوه التي اعتدت على رؤيتها! وليس هذا فلانٌ الذي أعرفه بل وليس هذا صديقي فلان، لقد تغيرت أشكالهم...لا حول ولا قوة إلا بالله!

ويدخل الجميع إلى المهجع من تلك المعركة القاسية وغير المتكافئة، والكل ينظر إلى بعضهم لكن دون كلامٍ حتى ولا همسٍ لأول وهلةٍ، مندهشين متعجبين لما هم فيه ولماذا يُعاملون بهذه الطريقة وما الذنب الذي ارتكبوه حتى يُغيَّبوا عن العالم بأكمله لتستفرد بهم هذه العصابة الحاقدة.

أمام هذه التساؤلات التي لا بدّ لها من أن تُساور أذهان الشباب والتي تحتاج إلى إجابةٍ كافيةٍ مقنعةٍ قد تودي بالبعض إلى مهاوي الشرك والشك بالله عندما يعجز عن الإجابة، والتي سيُجاب عنها من واقع الحياة اليومية التي يعيشها الناس وسنتكلم عن ذلك في وقته إن شاء الله.

بعد حفلة "نعيماً" أُدخلنا مرّة ثانيةً إلى مهجع الورشة الذي لا يوجد فيه أحدٌ غيرنا، وكنا سبعة عشر شخصاً فقط، فدخل الزبانية علينا وأرادوا تعين رئيسٍ للمهجع، فسأل زعيمهم:

. من منكم ضابط؟

. لا أحد.

. من منكم عسكري؟

. لا أحد.

. من منكم طبيب؟

. لا أحد.

. من منكم مهندس؟

. لا أحد.

فلم يجرأ أحدٌ منّا من أن يبوح بعلمه لما فعلوه من تعذيبٍ وضربٍ لنقيب المحامين الذي كان معنا؛ عندها انتقى المنادي واحداً منا وعلّمه كيف يقدّم الصّف عند فتح الباب، حيث يجب أن يقول:

(انتبه...استارح...استاعد...المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب)

وأخذ يدرّب هذا الشاب حتى إذا ما انتهى من تقديم الصف ضربه الزبانية على رأس معدته فسقط أرضاً دون حراك، ثم راحوا يوقظونه بأقدامهم وينادون شخصاً آخر فيفعلون به مثل زميله حتى أسقطونا جميعا على الأرض صرعى من ضرباتهم لنا على المكان الخطر والحساس، ثم انصرفوا دون أن يعيّنوا رئيساً للمهجع، حتى إذا جاء موعد فتح الباب للتفقد أو للغداء لم يقدّم الصّف أحُد فكان ذلك حجةً كافية لإنزال العقوبة فينا جميعاً، فتلقيّنا من العذاب والقتل ما فيه النصيب، ثم عيّنوا أحد الشباب رئيساً للمهجع وبقينا على هذه الحالة سبعة أيامٍ كانت من أصعب وأسوأ أيام السجن على الإطلاق، إذ لم نكن نعرف كيف سنعيش وكيف سنتعامل معهم، وكيف ينبغي أن نكون، حتى نُقلنا إلى مهجعٍ كبيرٍ تبلغ مساحته ١٨×٥م٢ كان فيه من المساجين٢٠٧ أشخاص آنذاك، وهنا تعرّفنا على حياةٍ جديدةٍ من نوعٍ آخر.

استقبلنا إخوتنا داخل المهجع بكل رفقٍ ولطفٍ ورأفةٍ وأخذوا بتضميد جراحنا وتدليك ظهورنا وقالوا لنا: حمداً لله على سلامتكم، فإنّ هذا لطفٌ من الله قد حفّكم به. فقلنا لهم وبسخريةٍ: ما هذا اللطف العجيب الذي تتكلمون عنه... ضربٌ وتعذيبٌ وتشويهٌ وتقولون أنه لطف...!

فقالوا: ما من أحدٍ جاء ودخل إلى هنا إلا واستقبلوه ب١٢٠٠ كرباج وأكثر من ٢٠ كرباج على رأسه و٥٠ على ظهره حتى يتشقق ظهره ويتفسخ، وتتورم رجلاه وتنفطر، ويتشوه رأسه ووجهه فلا يُعرف من هو، فأيقنا أنّ لطف الله كان يحفّنا من كل جانب بالفعل.

مخطط سجن تدمر العسكري

قبل البدء بسير الحياة اليومية في السجن لا بدّ لنا أن نتحدث عن طبيعة البناء التي أقيم عليه السجن وعن توزيع المهاجع فيها وعن طبيعة الباحات وكبرها وطبيعة أرضيّاتها التي يتمّ عليها التعذيب، وعن أسوار السجن وما يحيط به وعمّا اتخذ من الاحتياطات الأمنية بخصوصه، وما إلى ذلك مما ينبغي معرفته حسبما عرفناه وما توصلنا إليه، ففي السجن ما يقارب الخمسين مهجعاً ما بين متوسط الحجم والكبير، موزعة على سبع باحاتٍ كبيرةٍ، فالباحة مشتركةٌ بين مهاجعهم لكنهم لا يعرفون بعضهم ولا يمكن لهم التواصل مع بعضهم بأي شكلٍ من الأشكال.

ففي الباحة الأولى كانت تضم المهاجع (١-٢-٣-٤-٥-٦-٧).

وفي الباحة الثانية كانت تضم المهاجع (٨-٩-١٠-الحمّامات).

وفي الباحة الثالثة كانت تضم المهاجع (١١-١٢-١٣-المستودع-١٤-١٥-١٦-جديد٣-منفردات).

وفي الباحة الرابعة كانت تضم المهاجع (١٧-١٨-١٩-٢٠-٢١-٢٢-٢٣-٢٤).

وأما الباحة الخامسة فلم نكن نعرف عنها شيئاً، إلا أنه من يُراد معاقبته فيُدخلونه إليها حيث المنفردات والسوالين.

وأما الباحة السادسة فهي أكبر الباحات، وفيها تُنفّذ الإعدامات المستمرة، وتحتوي على المهاجع(الورشة-٢٥-٢٦-٢٧-٢٨-٣١-٣٢-٣٣-٣٤-جديد صدر-جديد٢/٦-جديد جديد).

باحة المستوصف وهي باحةٌ صغيرةٌ تحتوي على مهجع المستوصف وهو(خاص للنساء) ومهاجع(٢٩-٣٠).

والباحة السابعة فيها مهاجع (٣٥-٣٦-٣٧-٣٨).

وبالتالي يكون عدد المهاجع خمسة وأربعين كما هو موضح بالشكل:

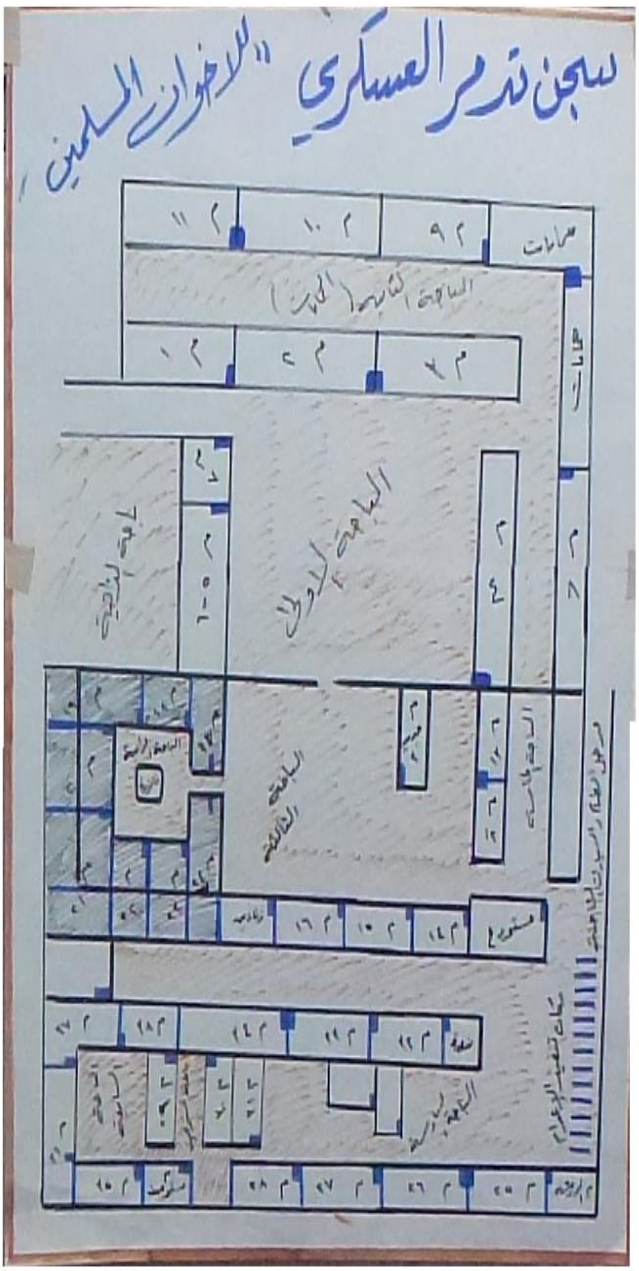

سجن تدمر العسكري "للإخوان المسلمين"
حمامات
الساحة الأولى
الساحة الثالثة
مستوصف

للعلم فقط

بعد أن رسمنا مخطط السجن بشكلٍ تقريبي ووضع المهاجع الموزعة على الباحات لا بدّ من لفت الأنظار إلى الاحتياطات الأمنية المتخذة من قبل إدارة السجن، حيث يحيط به من الخارج عددٌ من كتائب الوحدات الخاصة بشكل دائمٍ ومستمرٍ، وهذا كان واضحاً من أصوات تدريبهم، فكان وجودهم حولنا يُعتبر الخط الأمني الأول للسجن؛ وأما الخط الأمني الثاني فكان خندقاً قد حُفر حول السجن ومن جميع جهاته؛ وأما الخط الأمني الثالث فكان السور الذي يزيد ارتفاعه على سبعة أمتار، والذي لا يمكن لأحدٍ أن يعلو إليه إن أراد ذلك؛ كما أنّ الحرس من الشرطة العسكرية والذين هم السجّانة أنفسهم يُعتبرون الخط الأمني المباشر إذ لا يمكن أن يغادروا السطوح لحظةً واحدةً، إضافةً إلى ذلك ما قاموا به من تشريطٍ للباحات بأسلاكٍ شائكةٍ شرقاً وغرباً بحيث لو أنّ طيراً أراد أن يخرج من أرض الباحة إلى السماء لما استطاع ذلك لأن ذلك الطير إذا ما نفد من الخروج من الأسلاك الشائكة وقع لقمةً سائغةً أمام طلقات الحرس!

كما نرى أنه من الأهمية بمكانٍ أن نلفت النظر إلى أنّ النّظام في السجن قائمٌ على منع فتح العيون لأي سببٍ من الأسباب، فهو من الموبقات التي يعاقب عليها النظام أشدّ العقوبات، ولذلك كان من الصعب جداً على المساجين أن يعرف أحداً من الشرطة والسجانة بشكله الحقيقي إلا إذا ما سمعنا اسم أحدهم عن طريق الخطأ إن كان صديقه ينادي له.

وأما الباحات فهي مخصصةٌ للتعذيب حيث أنّ أرضيتها مصبوبةٌ بحصى مثلثيةٍ مدببةٍ (مروّسة)، وقد تحفّرت هذه الباحات لقدمها ولذلك فإن العقوبة فيها وخاصةً الزحف (كواع وركب)، والذي كثيراً ما كانوا ينفّذونه علينا كان من أصعب العقوبات على الإطلاق، وغالباً ما تكون مصحوبةً بالكرابيج لينتهي الأخ المعاقب في نهاية الجولة محطماً يحتاج لمن يقوم بخدمته!

برنامج الحياة اليومية في سجن تدمر

وأما عن الحياة اليومية التي سنُمضيها في هذا السجن فهي ذات نظامٍ ثابتٍ لا يتغيّر من حيث شكلها الخارجي، إلا أنّ ما يتغيّر فيها هو أنواع التعذيب المبتكَرة من الشرطة الذين يتبدّلون علينا بين الفترة والأخرى، وهذا من خبث هذا النظام، فكلّ من يأتي إلى الخدمة العسكرية في هذا السجن كان يحسب أنّ هؤلاء "المساجين" لم يُحاسبوا ولم يُعذّبوا من قبل، فعليه إذاً أن ينتقم منهم بعد أن يُعبّأ بمحاضرةٍ تشحنه طائفياً وتطلق يده في هؤلاء المساكين الذين مرّ عليهم العشرات بل والمئات من أمثال هذا الشرطي الحاقد، ممّن تشفوا منا ليس لسبب معين، فأنت عندهم مستباحٌ متى أرادوا وبأي شكلٍ أرادوا وما عليك إلا أن تقول بلسانك "أمرك سيدي"، ثم تقدم له جسدك لينال منه ويفرّغ فيه حقده!

وتتجلّى حياتك اليومية هناك بعدة أمور لا بدّ منها ولا مفرّ وهي على الترتيب:

١- الاستيقاظ: ويكون في الساعة السادسة صباحاً مهما كانت الظروف.
٢- الفطور: ويكون بين الساعة السابعة والثامنة صباحاً في أغلب الأحيان ما لم يكن هناك تنفيذٌ لحكم الإعدام فإنه يتأخر حتى ينتهوا من جريمتهم.
٣- التنفّس: ويكون بين الساعة التاسعة صباحاً حتى الواحدة ظهراً.
٤- التفقّد: ويكون بين الساعة الواحدة والواحدة والنصف.
٥- الغداء: ويكون بعد التفقد في أغلب الأحيان.
٦- التنفّس المسائي: ويكون بعد العصر أحياناً.
٧- العشاء: يكون بعد التنفس المسائي وقبل المغرب.
٨-النوم: ويكون في الساعة السادسة مساءاً مهما كانت الظروف.
٩-فترة النوم والحرس الليلي: وهذه ليست بأسهل مما قبلها بل هي أصعب بكثيرٍ، وسنتكلم عن ذلك في وقته إن شاء الله.

تلك محطاتٌ يومية لا بدّ منها ولا مهرب، إلا أنّ هناك محطاتٌ أسبوعية هي أقسى منها وأشد صعوبة وهي:

١٠- الحمّامات: في كل أسبوعٍ مرّة لا محالة وللجميع وحتى المرضى.

١١- الحلاقات: في كل أسبوعٍ مرّة حلاقةٌ للذقن أيضًا للجميع، حتى لو لم يكن عليه شعرٌ، وأما حلاقة الرأس ففي كلّ ثلاثة أسابيع مرّة.

١٢- وأما المحطات الشهرية فيمكن حصرها بما يسمى "التفتيش" الذي يتراوح وقته بين العشرين يوماً والشهر.

١٣- وأما المحطة السنوية وهي "التعقيم" فلا تحدث إلا كل عامٍ مرّة والحمد لله، وسنتكلم عن كلّ محطةٍ على حدة.

الاستيقاظ

أخي القارئ: قبل أن تسأل عن عدد أفراد المهاجع، لا سيما وأنّ الجميع يعرفون أنّ عشرات الآلاف موجودون في السجن، فنقول وبكلّ صدقٍ مستعينين بالله: إنّ أقلّ مهجعٍ من مهاجع السجن المتوسط الحجم فيه مئة شخصٍ على الأقل، وأما المهاجع الكبيرة فلك أن تتحدث عن أكثر من مئتين وخمسين سجيناً كما في مهجع ٤"-٥-٦"، وباختصار أستطيع أن أوضّح لك شيئاً تعرف من خلاله عدد أفراد المهجع وكيفية منامتهم وطبيعة جلوسهم خلال النهار، وهو أنّ كلّ شخصٍ في السجن له مساحةٌ للنوم تقدّر بـ(شبر وإصبعين)، فتخيّل ذلك يرعاك الله!

ما أن تصبح الساعة السادسة صباحاً حتى يأتي الحرس الذي يعتلي أسطح السجن فينادي بأعلى صوته وبلهجته النصيّرية القذرة مصحوبةً بألفاظٍ سيئةٍ مثله قائلاً:

إستيقاظ يا.....

فيصحوا الجميع وبسرعةٍ حتى لا يكون عرضةً لعقوبةٍ صباحيةٍ، ويلملم كلٌ منّا بطانيته ويجلس مكانه دون حراك حتى يذهب ذاك الحارس اللئيم إلى غيرنا، وهنا يتجمع السجناء ويصطفون جالسين وراء بعضهم البعض ينتظرون دورهم للدخول إلى حمّامين فقط يفترض أن يكفيا أكثر من مئتي شخصٍ لقضاء حاجاتهم! وهنا لا بدّ من ضبط الأمور والتوفيق ما بين دخول الناس إلى التواليت وما بين الانضباط حتى لا تكون الفوضى سبباً لعقوبة الجميع؛ ولذلك كان لا بدّ من وضع نظامٍ داخلي ينظم عملية الدخول يقوم بها أحد أفراد المهجع بتعينٍ من رئيس المهجع وهذا ما سنتكلم عنه إن شاء الله.

وهناك قسمٌ من الناس يؤخرون دخولهم إلى وقت آخر مراعاةً لظرف المهجع فيجلسون في أماكنهم منشغلين بقراءة أورادهم وأذكارهم التي اعتادوا عليها يومياً، كما يقوم آخرون بالوضوء خفيةً لأداء صلاة الفجر وقراءة ما يحفظون من القرآن الكريم.

الفطور

هذه المحطة الأولى من المواجهة مع الشرطة ويمكن لنا أن نسميها "غزوة" لأنها بين طرفين أحدهما مسلّح وهو بكامل القوة والآخر أعزل لا يملك شيئاً من مقومات الحياة اللائقة، حيث تتم المواجهة الأولى بفتح الباب وتقديم الصف من قِبَل رئيس المهجع، بينما يكون جميع أفراد المهجع واقفين ووجوههم إلى الحائط وأيديهم وراء ظهورهم، فينادي الشرطي بصوته الهمجي النصيري:

أدخل الفطور يا.....

فيخرج ثلاثةٌ من الشبان الشجعان لإدخال جاط بلاستيك نصفه شايٌ باردٌ تعلوه زهومة الزفر العالقة به، وجاطٍ آخر فيه نوعٌ واحدٌ من أنواع الطعام التي تأتي للفطور، وهي إما اللبنة أو الجبنة أو الزيتون أو المربى "المرملات" أو البيض.

والذي يهمّنا هنا أن نتحدّث عن كيفية دخول الطعام إلى المهجع، فما أن يخرج الشباب من الباب ويُمسك كلّ واحدٍ منهم بالجاط حتى تنهال عليهم الكرابيج واللكمات والركلات من كل جانبٍ من أجل أن يتعثّر أحدهم فيسقط منه شيءٌ من الشاي على الأرض، وهنا تقع الكارثة التي تستدعي إحضار شبابٍ جدد من أجل التنظيف، فنكون بشخصٍ فنصبح باثنين أو ثلاثة تحت التعذيب والرفس، حتى يصيح بنا الشرطي أخيراً أن أدخلوهم، فيخرج بعض الإخوة لإدخالهم محمولين ليصبحوا أو ليصبح أحدهم جريحاً لا يستطيع العمل إلا بعد فترة.

بهذه الصورة المؤلمة يبدأ فطورنا بل ويبدأ يومنا، وبهذه الصورة نستيقظ كل يوم، فكيف لنا بعدها أن نتناول من الطعام شيئاً ثم ما هذا الذي سنتناوله؟!

فاسمع يا أخي عن كميّة الفطور التي تأتي للمهجع الذي يضم حوالي ٢٠٠ شخصٍ وهي إما:

١-٢ كيلو غرام من اللبن أو

١-٢ كيلوغرام من "المرملات" أو

١-٢ كيلوغرام من الزيتون أو

٢-٣ قرص من الجبنة أو

١٠-٢٠ بيضة

إضافة إلى نصف جاطٍ من الشاي البارد!

إذاً الفطور سيكون الشاي + أحد أصناف الطعام التي ذكرناها.

لكن أمام هذه الكميّات القليلة تعترضك طريقة توزيعها، حيث يقوم رئيس المهجع بتقسيم المهجع إلى مجموعات للطعام، كأن يكون كل (٦-٨-١٠) أشخاص مع بعضهم، وذلك حسب عدد أفراد المهجع، ومدى سعته للمجموعات، وعدد الزبادي الموجودة فيه.

بهذا الشكل يتم توزيع المجموعات، ثم يقوم رئيس المهجع بتعيين شخصٍ أو شخصين ليقوما بتوزيع الطعام على هذه المجموعات في زبادي بلاستيكية، بينما ينصرف كل فردٍ من أفراد المهجع إلى مجموعته التي عُيّن فيها للأكل معهم، وكل ذلك يكون بشكلٍ صامتٍ دون أي فوضى حتى لا ينقلب الطعام إلى عقوبةٍ إذا ما جاء الشرطي وكشف ذلك.

وهكذا يدخل الفطور المنتظر إلى تلك المائدة الخالية من كل شيء تنتظره معداتٌ فارغةٌ على أحرّ من الجمر لعلها تسدّ رمق جوعها، إلا أنها تفاجئ أنّ ما جاءها من فطورٍ لا يكفي لطفل يبلغ من العمر سنتين!

فإذا ما كان الفطور بيضاً فاعلم أنّ عدّة القسمة ستكون الخيط، لأن الخيط هو الآلة الوحيدة التي تستطيع تقسيم البيضة إلى ثمانية أقسام (فالبيضة لثمانية أشخاص)!

وأسهل شيءٍ في التوزيع كان الزيتون، حيث تكون حصة الشخص حبتين أو ثلاث حباتٍ، وأما ما زاد عن ذلك فاعلم أنه على حساب مهاجع أخرى.

وأما توزيع اللبنة فمن الصعوبة بمكان، إذ أنّ ٢ كيلو غرام من اللبنة لا يمكن أن تكفي فطوراً لأكثر من مئتي شخصٍ، فكم سيكون نصيب المجموعة الواحدة؟ بل كم سيكون نصيب الفرد الواحد وكيف سيتم توزيع هذه الكمية؟!

لذلك يقوم رئيس مجموعة الطعام بمسح بعض قطع الخبز بما جاءه من اللبنة وتوزيعها على أفراد محموعته، أو أن يضيف إلى اللبنة قليلاً من الماء لتتحول إلى ما يشبه العيران، يشربه الشخص منا مع قطعة خبزٍ ليُقنع نفسه بأنه قد تناول طعام الفطور، فالأمر يسير بشكلٍ عامٍ على مبدأ "شمّ ولا تذوق"!

وكذلك "المرملات" التي لا تعرف إلى أيّ صنفٍ من الفواكه تنتمي، أهي مشمشٌ أو عنبٌ أو غيرها.....

و من طريف ما حدث معنا مرّة حيث فُتح الباب لإدخال الفطور فخرج ثلاثة شبان ودخلوا فوراً، فإذا بأحدهم قد أدخل جاطاً نصفه شايٌ باردٌ وأما الآخر فأدخل جاطاً فارغاً لا شيء فيه ثم أخرجه فوراً بعد أن وضع فيه الزبالة (بقايا الكناسة)؛ ولما أُغلق الباب نظر الناس فلم يجدوا فطوراً فتساءلوا وطالبوا رئيس المهجع وألحّوا عليه بطلب ذلك من الشرطة، فتردد في ذلك خوفاً من الضرب الذي سيطاله من جراء المطالبة، إلا أنه أمام إلحاح الناس عليه طلب من الشرطة ذلك لما أتوا إلى التنفس الصباحي، فنادى الشرطي للبلديات (وهم عناصر من العلويين فرّوا من الجيش كانوا أكثر حقداً ووساخةً من الشرطة جيء بهم للحلاقة وتوزيع الطعام)؛ فلما أتى أحد أفراد البلدية قال له الشرطي:

لمَ لم تحضروا لهؤلاء الفطور هذا اليوم؟

فأجابه: إذاً هؤلاء الذين رفضوا الفطور وأرجعوه.

وهنا جاء دور العقوبة.... ترفضون الفطور؟

وأخذوا بضرب رئيس المهجع والتنكيل به حتى أدموه وأسقطوه أرضاً، ثم جيء بنفس الجاط الذي أدخلناه صباحاً وأخرجناه، وإذا الأمر الذي حدث كان خدعةً لا نعرف أنه بشكل عفويٍ أم أنها مقصودة، وهي أنّ جاطين مكسورين وضعا ببعضهما ليكوّنان جاطاً واحداً صالحاً للإستخدام، إلا أنّ الفطور يومئذٍ كان قطعةً واحدةً من الجبنة موضوعةً بين الجاطين، حتى إذا اكتشف الناس ذلك ندموا وتأسفوا على طلبهم من رئيس المهجع بإلحاحٍ حتى تسببّوا له بهذه العقوبة القاسية من أجل قطعة من الجبنة لا تبلغ ٢/١ كيلو غرام!

كذلك وفي مرّة أخرى خرج ثلاث شبابٍ لإدخال الفطور وإذا بهم يفاجؤون أنّ الفطور قد وُضع في جاط فيه علبةٌ من اللبن المبستر بوزن ١ كيلو غرام، وكنا آنذاك ١٩٩ شخصاً في المهجع، فتخيّل يا رعاك الله أن توزّع هكذا فطور، أو كيف تقنع نفسك أنّ هذا الفطور سيكفيك؛ إلا أنّ الناس كانوا مؤمنين بأنّ هذا سبب من الله، وأنّ الكفاية من عنده دون سواه.

التنفس الصباحي

عنوان هذه "الغزوة" هو التنفس الذي هو أمنية كلّ من يُوضع في أقبية السجون، وخاصةً سجون العوالم التي تحكمها الديكتاتوريات المفرطة في تعذيب كل من يقف معارضاً لسياستها القائمة على ظلم الناس وقهر الشعوب وسلب حريتها وإهانة كرامتها وكمّ أفواهها وحرمانها من أبسط حقوقها ألا وهو التعبير عن رأيها في بناء وطنها نحو الأفضل والأمثل، فمصير هؤلاء في ظل هذه الحكومات إمّا القتل وإمّا السجن إلى ما لا نهايةٍ تُعرف!

أما التنفس بالنسبة لهؤلاء وأمثالهم فيجب أن يكون جزءاً ملازماً لحياتهم، وذلك لحاجتهم إلى شمّ الهواء النقي ورؤية الشمس والتعرّض لأشعتها، إلا أنّ الأماني لدى هؤلاء الناس عكس ذلك تماماً، فهل تتصور أخي القارئ أنّ سجيناً مدة سجنه عقدٌ أو عقدان من الزمن يتمنّى... ومن أفضل أمنياته في الحياة إلا يخرج للتنفس أبداً، وأن يبقى داخل المهجع في الظلمة والرطوبة والهواء الفاسد المحصور ضمن المهجع؟!

نعم، وأنا واحدٌ من آلاف البشر كم كنا نتمنّى ألا يُفتح باب المهجع علينا، بل كنا نتمنّى أن يُنزّل الطعام علينا من الشرّاقة (الفتحة الموجودة في سقف المهجع) حتى لا نرى وجوهاً الحقد في عيونها والأذى في أيديها والقتل والتعذيب فنٌ من فنونها؛ وكم تمنّينا أن يبقى الظلام مرخياً سدوله حتى لا يخرج الصباح ويكون التنفس لنا بالمرصاد!

فالتنفس . كما هو معلومٌ بالنسبة لأي سجينٍ في العالم . هو الراحة من التعب وشمّ الهواء النقي بدلاً من هواء المهجع الملوث؛ وأما التنفس في تدمر فهو التعب بعد التعب والإهانة بعد الإهانة والذل بعد الذل! فالتنفس في مفهومهم عبارةٌ عن هوايةٍ في القتل وفنونٌ في التعذيب يمارسها زبانية النظام على كل مهجعٍ يخرج بدوره للتنفس من ضربٍ ولكمٍ وركلٍ ورفسٍ وما إلى ذلك من أشكال القمع والوحشية، ولذلك وبعد أن ننتهي من تناول وجبة الفطور يستعد الجميع لمواجهة "غزوةٍ" جديدةٍ وبشكلٍ مباشرٍ هذه المرّة، "غزوةٌ" طرفاها

جميع أفراد المهجع مغمضي العيون من جهةٍ، وعناصر شرطة السجن المدججين بالسلاح من جهةٍ أخرى!

حقيقةً لا أعرف كيف أبدأ بشرح جولات هذه "الغزوة"، فلا تستطيع لغةٌ أياً كانت معانيها وكثرة مفرداتها ورصف حروفها وسبك جملها أن تصف الحالة النفسية التي سترافقنا في هذه الغزوة كما الغزوات الأخرى، فاللغات عاجزةٌ عن وصف ما كنا به من مشاعر وأحاسيس رافقتنا من أول يوم دخلنا فيه السجن واستمرت معنا طوال أيامه حتى آخر يومٍ ودعناه؛ وما سأخطّه من معانٍ ووصفٍ في جملٍ مفيدةٍ إنما هو لتقريب المشهد قدر المستطاع، ولك . أيها القارئ . أن تتصور حجم المعاناة التي كنا فيها والحياة البائسة التي عشناها في ظلّ المجرم المقبور حافظ الأسد، الذي سطّر أبشع الصفحات التاريخية عبر الأجيال إلى قيام الساعة، بسب الممارسات الوحشية العنصرية التي قام بها ضدّ أفضل ثلةٍ بشريةٍ كانت موجودةً في المجتمع السوري من حيث العلم والأخلاق والتربية.

فإذا ما انتهينا من الفطور استعد الجميع للمواجهة ،أي أنّ كل واحدٍ من أفراد المهجع بدأ يلجأ إلى الله حيث يتوضأ فيصلي ركعتي قضاء الحاجة، وربما صلى البعض ركعتي الشهادة وأخذ يلهج بالدعاء والتضرع إلى الله والاستعانة به والإلحاح عليه عسى أنّ يخفف عنّا ما نحن إليه قادمون، وما أعدّه لنا الظالمون المجرمون، والكثير منّا من يقرأ "سورة يس"، وهذا حال جميع أفراد المهاجع التي تنتظر وتتهيأ مثلنا، فأصعب من المعركة انتظارها، والكلّ معنيّون بذلك دون استثناء.

حتى اذا ما اقتربت الساعة من التاسعة صباحاً وسمعنا أصوات الزبانية وقد أصبحت في الباحة أخذت القلوب تدق كالطبول وبدأت أعضاء الجسم بالإرتجاف، وعمّت الوجوه شحابةُ الإصفرار وشخصت أعين الناس إلى أعلى وكأنها تنظر إلى ملك الموت قد أقبل عليها، فهم ساكنون كأنّ على رؤوسهم الطير دون كلامٍ ولا همسٍ ولا حركةٍ، فالصمت والسكون

سيد الموقف والهلع مخيمٌ على جوّ المهجع آنذاك، والجميع يلهج بالدعاء وينتظر رحمة الله ويطلب لطفه، فاللقاء أوشك على الاحتدام بين الفريقين.

حتى إذا سُمع صوت المفتاح أدخل قفل الباب كان ذلك أقسى من صوت أزيز الرصاص، عندها يقوم رئيس المهجع بتقديم الصف بينما الجميع واقفين باستعداد، مغمضي العيون منكّسي الرؤوس وأيديهم وراء ظهورهم استعداداً للخروج ينتظرون أمر زعيم الزبانية الذي يناديهم بلهجته النصيرية قائلاً:

أخرجوا إلى التنفس أيها الخونة.....

ويبدأ الجميع بالخروج فرداً فرداً وكلّ واحدٍ منهم يقرأ ما تيسر له وخاصةً آية في سورة "يس": (وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لا يُبصرون)، ثم يتفل سرّاً في وجه الشرطة ويقول من غير صوت: "شاهت الوجوه"، ويخرج مستعيناً بالله، بينما يكون الزبانية منتشرين كلٌ في مكانه من الباحة وبيده كرباجه الذي يلهب الظهور، فما من أحدٍ يخرج من باب المهجع إلا سيناله نصيبٌ من ذاك الذي وقف على بابه، حتى إذا خرج الجميع إلى الباحة أخذت السياط تلعب بظهورهم وعلى رؤوسهم، فمن نجا من ضربةٍ عند خروجه من الباب لا بدّ من أن تناله ضرباتٌ في الساحة.

وهنا لابد من أن نميّز بين حالتين من التنفس، وكل منهما أمرّ من الأخرى: فالتنفس إمّا أن يكون جالساً وإمّا أن يكون ماشياً؛ وفي حالة الجلوس غالباً ما يكون السجين عاري الصدر وخاصةً في الصيف، حيث نحاصر في مكانٍ ضيقٍ جالسين ورؤوسنا منكّسةٌ إلى الأرض وأيدينا وراء ظهورنا وأعيننا مغمضةٌ، حتى إذا نظر أحدٌ إلينا من بعيدٍ يحسبنا أمواتاً إذ لا حركة يمكن أن تصدر عنّا وكأننا أحجارٌ مزروعةٌ في الباحة؛ هذه الباحة التي سنجلس عليها فإن أرضها مصبوبةٌ بحصىً مدببةٍ مروّسةٍ قد حُفرت لقِدمها، فالجلوس عليها عقوبةٌ

قاسيةٌ بحدّ ذاتها، والويل كلّ الويل لمن يتحرك منا، فالهمّ الوحيد والمسعى الأول عند الزبانية الآن هو البحث عن كبش فداءٍ فضلاً عن أنّ الجميع هم أكباش فداء!

ويبدأ الهرج والمرج في جوّ رهيبٍ لا يمكن وصفه، حيث يعيش الفرد بين لهيب السياط التي تلهب الظهور ويسمع صوت صداها كلّ شيءٍ، وبين صراخ هؤلاء الضعفاء المساكين وصياحهم الذي يدوّي في الفضاء دويّاً مرعباً، وبين هذا وذاك يكاد الدم يجفّ في عروق من يجلس وينتظر دوره الذي لا بدّ آت ولكن متى لا يدري... يتمنى الإنسان عندها لو كان نسياً منسياً، أو مثل ذلك الطائر الذي يسمع تغريده في السماء فلا يمسّه أحدٌ، أو كما كنا نسمع من بعض الإخوة الجدد عندما يسمعون صوت حمار ينهق فيقولوا: لو كنا مكانه ما كنا تعرّضنا لذلك من هؤلاء الوحوش البشرية!

فلك أن تتخيل حجم هذه المعاناة وهاك بعض الأمثلة مما كان يحدث معنا في التنفس حيث يمكن لك أن تسمع أحد الزبانية يقول:

من له أذنين فليخرج..... فلا يخرج أحد..... لأن من سيخرج إليه قد يكون مآله الموت من الضرب والقتل، ومن لم يخرج فلا خلاص له إذ لا بدّ من التبرير ولا تبرير لذلك فالكل له أذنان، وهكذا يأتي الشرطي إلى أحد الإخوة فيضربه على ظهره ويسأله:

. كم أذناً لك؟

فيقول: اثنتين.

فيقول الشرطي: ولمَ لمْ تقم إذاً.

وهنا تكون المصيبة التي ألمّت بهذا المسكين عشرات الكرابيج التي ستلهب ظهره وتورّم رأسه وتشوّه وجهه، وهكذا يقول بسؤال آخر:

من له عينان فليقمْ.... لا أحد يقوم.

فيضرب أحد الشباب على ظهره ويسأله: كم عيناً لك؟

فيقول له: اثنتين.

. إذاً فلمَ لم تقم..... وينهال عليه لكماً ورفساً وضرباً بالسياط، وهكذا حتى يسقطوا الكثير منّا بين مصابين ومشوهين، بل وحتى أوصلونا إلى مرحلةٍ تمنّى الناس أن لو خلقوا بدون آذانٍ ولا أعينٍ.

يتمّ ذلك كلّه بكل دمٍ باردٍ وبكل استهزاءٍ واستخفافٍ وحقدٍ وقساوةِ قلب، ولو أردت أن أختصر لك هذا المشهد من شدّة الخوف والهلع الذي ينتاب الناس بما ورد عن الحالة النفسية التي بلغها الصحابة في غزوة الخندق عندما أحاط بهم المشركون والأحزاب من كلّ جانبٍ وأوشكوا بالانقضاض عليهم حيث عبّر القرآن عن حالتهم بقوله (إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً)! وما أشبه اليوم بالأمس، فهذه الحالة تتكرّر كل يومٍ معنا بهذا الشكل، وأحياناً بأشكالٍ أخرى وأساليب تعذيبٍ مختلفةٍ يبتكرها أحد الزبانية.

وأما في حالة التنفس الثانية، وهي أن يصطفّ كلّ خمسةٍ برتلٍ يليه رتلٌ من خمسة أشخاص آخرين وهكذا حتى يصطف أفراد المهجع كلّه، وهم . كما قلنا من قبل . مغمضو العيون منكسو الرؤوس وأيديهم وراء ظهورهم، حيث يُحاصرون في منطقةٍ ضيقةٍ ويمشون في دائرةٍ لا يتعدى قطرها عشرة أمتارٍ، وشرط المسير هذا أن تكون النملة أسرع منك، والويل كلّ الويل لمن يُشاهَد بأن عينيه تبصبص، أي أنها مفتوحةٌ ولو ربع فتحةٍ، فالشرطة تراقب الجميع والجميع سيمرّ أمامهم والنصيب أصبح معروفاً لمن يقع فريسةً بين أيديهم، وبالتالي عليه أن يتحمل مسؤولية ذلك لكماً وضرباً ورفساً حتى يُدمى أو يُطرح صريعاً!

وهكذا لا يكاد يمرّ التنفس إلا والعشرات من أفراد المهجع بين مصابٍ ومشوّهٍ ومحطّم يحتاج إلى من يساعده، حتى إذا ما انتهى وقت التنفس وجاء أمر الدخول إلى المهجع ترى الجميع

يركضون نحوه متجمعين على بابه كما لو أنّ ذئباً جائعاً يطارد أغناماً ليحصل على فريسته، فمثل الناس آنذاك كمثل الخراف الشاردة من شدة خوفها مما سيلحق بها من وراءها، حيث ترى الكرابيج تنهال عليهم وعلى رؤوسهم وأجسادهم كيفما اتجهوا ذات اليمين وذات الشمال، فمنْ لمْ ينله نصيبٌ من الضرب عند خروجه طاله العذاب في التنفس، ومن لم ينله نصيبٌ في التنفس ناله عند دخوله إلى المهجع!

وأرى من المهمّ أن أذكر بعض القصص التي مرّت معنا، وما أكثرها من قصصٍ وحوادث تدلّ على حقد هؤلاء وتفننهم بالعذاب وطرق استعماله، فالتنفس شرع في سجون الأسد لممارسة التعذيب ليس إلا، وهم بارعون في ذلك.

فمن أساليبهم أن ينادي زعيم الزبانية في الناس الجالسين في الباحة (بوضعية أصبحت معروفة)، قائلاً:

. من له شعر على رأسه فليأتي إليّ... أو من رأسه كبير فليخرج إليّ.... من يقف في الصف الخامس فليقم..... فلا يقوم أحدٌ حيث أننا خرجنا من المهجع تحت الكرابيج وجلسنا في الباحة تحت الكرابيج فلا يعلم أحدٌ منّا أين مكانه في الجلوس، وبالتالي إن قام أحدٌ الاخوة استجابةً للشرطي ولم يكن في هذا المكان الذي حدّده الشرطي تعرّض للعقوبة، وإن لم يقم أحدٌ تعرّض أصحاب الصف المحدّد للعقوبة، وهكذا لا تعلم كيف تتعامل معهم وما هي الطريقة التي يريدون أن تتعامل بها معهم! واسمع إلى هذه القصة العجيبة التي حدثت مع أخٍ لنا في عهد من كنا نسميه العريف فواز، (وهو معروف عند السجناء الأوائل عام ١٩٨٠ بظلمه وبطشه)، فما يأتي في حفلة تنفسٍ أو حلاقةٍ أو غيرها إلا سيكون ضحيته شهيداً وعشرات الإصابات؛ وذات مرّة جاء ومعه شرطيٌ جديدٌ يريد أن يدرّبه على قتل الناس وكيفية الضرب، فنادى لأحد الشباب وأسقطه أرضاً وقال للشرطي: أضربه مئة كرباج؛ فقال الشرطي مندهشاً:

قد يموت إن ضربته مئة كرباجٍ.... فقال له العريف فواز: أتراهن على أن أضربه ستمئة كرباجٍ دون أن يصرخ صوتاً واحداً؟

وفعلاً قام بضرب هذا الشاب المسكين أكثر من ستمئة كرباجٍ ولم يصرخ صوتاً واحداً، ثم أوقفه منحنياً وضربه أكثر من عشرين كرباجاً على ظهره وأكثر من عشرين على رأسه حتى تورّم من شدة الضرب، وكل ذلك دون أن يصرخ الأخ بأي صوت؛ فقال له العريف مندهشاً ومتعجباً:

قم وقل أنا بطل؛ فوقف الشاب وقال أنا بطل، فرد عليه العريف وقال: ارفع صوتك وقل نحن أبطال؛ فقال بصوت مرتفع: نحن أبطال.

فقال العريف فواز: إنْ كانت هناك جنةٌ فأنتم أهلها؛ ونظر إلى الشرطي بجانبه وقال له: وإن كان هناك نارٌ فنحن أهلها (كلمة صدقٍ أنطقه الله بها)!

وهكذا تمضي هذه "الغزوة" عند إغلاق الباب تماماً بعدما كادت الأفئدة أن تتوقف عن التنفس، لأن الدم الذي في العروق كاد يجفّ، ومن كُتب له الدخول بسلامٍ فإنّ حياةً جديدة كُتبت في عمره، إلا أننا لا نجد الراحة أبداً، فأدوات التعذيب ما زالت تنهال على أجساد إخواننا في الباحة بينما دورنا الآن في الدعاء لهم، لأنّ أصوات السياط تملأ الفضاء دوياً، وأصوات الصياح تعجّ في السماء عجاً، ولا تعرف بأي دعوةٍ تدعو بها كي يخفف الله عنهم ما هم فيه؛ ولعل البعض بل الكثير منا انصرف ليحفظ من القرآن أو ليحضر درساً في الفقه أو الحديث أو السيرة النبوية ما نقوّي به معنوياتنا ونشدّ هممنا على تحمل تلك المواقف، بل ويزيد في إيماننا عندما نستذكر سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما لاقاه هو وأصحابه من تعذيب على أيدي المشركين، كحصار الشِعب الذي دام ثلاث سنوات، والذي حرموا فيه من أبسط مقومات الحياة حتى أكلوا أوراق الشجر للحفاظ على حياتهم؛ وكم لاقوا من التعذيب والتهجير فكانوا صابرين محتسبين راجين رحمة ربهم حتى أصبحوا

مثلاً وأسوةً حسنةً لمن جاء بعدهم واقتفى أثرهم، فرسموا لنا الطريق ووضعوا لنا معالمه فكانت نبراساً ومشاعل نهتدي بها ونسير على نهجها بكل ثقةٍ وبكل يقينٍ مهما كان الثمن ومهما طال الأجل؛ ولذلك كان الشباب في السجون لا يهابون الموت ولا يخشون القتل والضرب مهما اشتدت وحشيته، بل كانوا يتدافعون من أجل التضحية عن بعضهم... أيّهم يفدي أخاه ويضحّي عنه ولو كلّفه ذلك حياته، وهذا كلّه أمام أعين الشرطة الذين يتعجبون من تلك الشجاعة وتلك الحماسة التي يمتلكها هؤلاء الناس، فالموت مرافق لهم يومياً ولا يهابونه أبداً.....

ولذلك كانوا يقرّون ويعترفون للمساجين بشجاعتهم وبصدقهم وتضحيتهم تجاه بعضهم البعض، وهذا مصداق من قال: "الحق ما شهدت به الأعداء".

كم من القصص المليئة بالمآسي والتي تذرف لها الدموع وتقشعر لها الأبدان، وتقف العقول عاجزةً عن وصفها، فلا ينتهي الحديث عنها لكثرتها وعظم ما جرى بها، فهي بالعشرات إن لم تكن بالمئات، التي ألمّت بكل شخصٍ منّا، والتي كنا نحسّ ونشعر بأنّ جدران السجن وباحاته يبكون علينا ويرثون حالنا، ولو كانت لها ألسنةٌ لقالت: "أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم"؟ وتتابع قولها: تباً لكم أيها الظلمة (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون).

واسمع أخي الكريم إلى تلك القصة التي حدثت مع أخٍ لنا من دمشق، وكان غريمه ذاك العريف الحاقد الذي يجيد لعب الكاراتيه، حيث سحبه من بين أفراد المهجع في التنفس وأجلسه على درجةٍ مرتفعةٍ وقال له ارفع رأسك (مغمضاً عينيه طبعاً) وضربه بكعب بوطه على فكيه فكسره من فوره، وأصبح الأخ في حالةٍ صعبةٍ للغاية اضطرت زبانية السجن لأخذه للمستشفى، إلا أنّ الكارثة التي حدثت معه في المستشفى أكبر من أن يتصورها إنسانٌ يحمل شيئاً من الإنسانية، فقد أخاطوا فمه بشكلٍ محكمٍ دون تخديرٍ حتى لا يحرك فكيه مدة شهرٍ ليضمنوا بذلك تجبير فكه، فلم يستطع الأكل والشرب إلا عن طريق خرطومٍ

رفيعٍ كنا ندخله من طرف شفتيه، وكان قدّر عليه مرّة من قبل أن طالته ضربةٌ كسرت له سناً، فكنّا نُدخل هذا الخرطوم الرفيع من مكان السنّ المكسور حتى نستطيع إيصال الماء والطعام الذي حوّلناه إلى سائلٍ ليستطيع هضمه مباشرة؛ كلّ ذلك دون أيّ سببٍ بل لمجرد التسلية والتعذيب!

ومرّة وعندما كنا في التنفس طلب أحد الرقباء من أحد الشباب أن ينظّف مجروراً في الباحة، فأدخل الأخ يده في المجرور وأخرج منه فأراً ميتاً، فقال له الرقيب بلهجته النصيرية:

. كُله ولا.

فأجابه ذاك الأخ بسخرية وقال:

. أأغسله أولاً؟!

فرد عليه مزمجراً:

. كُله كما هو.

فما كان من الأخ إلا أن استجاب لذلك إذ لا مفرّ من تنفيذ الأمر.

واسمع إلى قصة ذاك الأخ المريض حيث أمر الرقيب رئيس المهجع بإخراج جميع أفراد مهجعه إلى التنفس في الباحة حتى المرضى (إذ كانوا يستثنون من ذلك)، يقول: خرجت مع المرضى وجلسنا على طرفٍ حتى نُعرف بأننا مرضى فلا يضربوننا، إلا أنّ الأمر كان بالعكس، حيث جاء الرقيب إليّ ورفسني رفسةً كادت أضلاعي تتداخل ببعضها وقال لي بلهجته:

. شِبَكْ ولا.

فقلت له:

. مريضٌ يا حضرة الرقيب.

فقال:

. هلق منشوف.

فوقف على ظهري وكتفي وقفز علي قفزةً شعرت بأن أمعائي قد تقطعت ثم قال:

. نعم إنك مريض.....و"شرّ البليّة ما يُضحك"!

وكذلك ذاك الأخ الذي كاد يبكي الجميع لحاله، فمن كثرة ما ضربوه هرب منهم واتجه إلينا ونحن جالسون على الأرض ورؤوسنا منكسةٌ وأيدينا وراء ظهورنا ولا نملك لأنفسنا حولاً ولا قوةً، فدخل هذا الأخ المسكين بين صفوفنا وقال:

إني أحتمي بكم يا إخوتي فخلّصوني منهم.

وهو يصرخ من قلبٍ مجروحٍ ولكن لا أحد يستطيع أن يحمي نفسه فكيف له أن يحمي غيره، وهذا ليس ضعفاً منا لكن السياسة التي كان يتبعها هؤلاء الزبانية هي العقوبات الجماعية التي تمنعنا من الردّ وتلزمنا السكوت والصبر، إذ أنّ الخطأ إذا صدر من أخٍ كانت العقوبة على الجميع، وقد يموت الشخص والشخصان والثلاثة من أجل خطأ قد نقوم به، فكنّا نؤثر تحمّل الضرب والإهانة من أجل حقن دم إخواننا وتخفيف العذاب عنهم.

التفقّد

لو خُيّر أحدٌ على خوض معركةٍ قتاليةٍ لتقبّلها بكل سرورٍ، أما أن يختار الخروج إلى التفقد فلن يفعل ذلك، لأنك في المعركة تملك سلاحاً تدافع به عن نفسك وإخوانك، وأما في التفقد فأنت أعزلٌ لا تملك شيئاً، بل ومجردٌ من كلّ شيء حتى من عيونك ويديك أمام خصمٍ

شريرٍ حاقدٍ خبيثٍ لا تعرف في ثقافته إلا إهدار الدماء وكسر العظام، فهي مواجهةٌ صعبةٌ جداً لا يمكن اختيارها أبداً، إلا أننا مجبورين على هذه المعركة الصعبة التي سنواجه فيها هؤلاء الأشرار، وعليك الآن أن تتحمل ما لا يمكن تحمّله وخاصةً من يقف في مقدمة الصفوف وعلى أطرافها، فهم من سيتحملون الشدائد والنوازل من لكمٍ ورفسٍ وركلٍ.

ولذلك فالتفقد من "الغزوات" المهمة التي يُحسب لها الحساب، لأنها ليست بأقل من أخواتها من حيث الشدة والقساوة، إلا أنها أقل منها في الوقت والزمن فقط، فهي برنامجٌ يومي يتفقدون فيه أعداد الناس في الساعة الواحدة ظهراً، أي بعد أن يكونوا قد أنهكوهم من التعذيب في التنفس الصباحي، حيث يأتي زعيم الزبانية ومعه عشرات من كلابه المسلحين بسياط كأذناب البقر ويكون الناس قد جهزوا أنفسهم لهذه الغزوة فاصطفوا كل خمسةٍ في رتلٍ وراء بعضهم، حتى يصطف المهجع كله، لكن الصعوبة ليست هنا وإنما الصعوبة تكمن عند الخروج إلى الباحة تحت ضربات الكرابيج المتلاحقة وضبط الصف بشكلٍ سريعٍ ومنضبطٍ حتى يتمكن زعيم الزبانية من عدّ أفراد المهجع خمسةً خمسةً، حتى إذا ما انتهى من ذلك كان باقي الشرطة يُعملون كرابيجهم وسياطهم على الرؤس والظهور، وبعضهم يُعملون أرجلهم وأيديهم حتى يدموا العشرات منا من تحطيمٍ لأنوفٍ وتشويهٍ لوجوهٍ وكسرٍ لأضلاعٍ، ومن نجا من ذلك فإن باب المهجع أمامه حيث يتجمع الكلّ عليه للدخول إذ لا يمكنهم ذلك فلا يتسع الباب لدخول أكثر من شخص، وما أن ينتهي المهجع من الدخول حتى يُنهك الجميع من سوء ما أصابهم وشدة ما ألمّ بهم، حتى إذا أُغلق الباب لملم كلٌ جراحه وحمد الله على لطفه بهم وحمايته لهم فليس بالأمر اليسير الخروج من هذه المعركة وخاصة لمن يقفون في مقدمة الصفوف وعلى أطرافها، لأنهم أكثر عرضةً للتكسير والتشويه، ولذلك كثيراً ما كنا نرى الشباب يتسابقون للوقوف عن إخوانهم في هذا المكان ليحمونهم وليتحمّلوا عنهم مشقة الوقوف وصعوبته، وهم يعلمون أنّ هذه الوقفة قد تعطب أحدهم، إلا أنه الإيمان الذي تعمق في القلوب فزرع فيها الطمأنينة والسكينة ونزع منها الخوف من هؤلاء الظلمة لما علم وتيقن أن هؤلاء عبيد لله يعذبون بعلمه ويضربون بإرادته،

فيمهلهم بحلمه وقد توعدهم بجبروته وقدرته، ولذلك علم هؤلاء الشباب طبيعة الدرب وصعوبته فكانوا ممن سار على نهج المصطفى في الصبر واقتفى أثره في الشدائد والملمّات.

ومن المهم ذكره في هذا المجال أنّ أعداد الشرطة ستكون مضاعفةً فهي ساعة تبديلٍ بين نوبةٍ وأخرى فالنوبة الجديدة تحسب أنّ هؤلاء لم يتلقّوا اليوم تعذيباً أبداً ولذلك يكون الضرب عليهم بشراسةٍ وقساوةٍ، واسمع إلى ما حدث معي مرّة في التفقد عندما أمرني شرطي برفع رأسي وأنا مغمض العينين، فنفّذت ذلك إذ ليس لي الخيار بالرفض، وأمرني أن أمد لساني وأضعه بين فكي، وإذا به يضربني بقبضته الحاقدة ضربة من أسفل الفك، ولولا لطف الله لقطع لساني، إلا أنني بقيت فترةً لا أستطيع الأكل حيث أنّ أسناني علّمت في لساني بشكل واضح وجلي، ولو كنت شادا لفكيّ لكُسر من شدة الضربة، إلا أنه لطف الله وحمايته التي كانت تحفّنا من كل جانب.

وكذلك الأخ الذي رأى في منامه أنه يأكل اللحم عند صديقٍ له فلم يأكل إلا قطعةً واحدةً فقط، وفي نفس اليوم عند الدخول من التفقد طاله كرباجٌ من الشرطي على رأسه كاد يفقده صوابه من شدته، فدخل وهويضع يديه على رأسه ويقول الحمد لله أنني لم آكل إلا قطعة لحمٍ واحدةٍ، فشرّ البلية ما يُضحك!

الغداء

كثيراً ما كناّ نسمع مثلاً يُردّد أمام مسامعنا يقول هذه "لقمةٌ مغموسةٌ بالدم" ولم نكن نفهمه بالمعنى الكافي، وكان فهمنا لهذا المثل أنّ اللقمة التي يحتاج إليها الإنسان في حياته لا بدّ لها من تعبٍ يُبذل حتى يحصل عليها، إلا أننا في سجون الطاغية المقبور حافظ الأسد أُضيف إلى مفهومنا معنىً آخر وهو أنّ اللقمة التي نحتاجها للبقاء على قيد الحياة هي الدم نفسه، لأنّ عملية إدخال الطعام من باب المهجع إلى داخله . وهي مسافة ثلاثة أمتار . تحتاج إلى كوماندس مُدرَّبٍ وشجاعٍ ومستعدٍ لتحمّل الركلات والرفسات التي ستأتيه من خلفه وعن يمينه وعن شماله وهو يحمل جاطات المرقة، حتى إذا سقط منه شيء (وهو أمر طبيعي في هذه الحالة) وقعت الصاعقة التي أعدّت له والتي تنتظره، فتصوّر الحقد الذي يحمله هؤلاء، وقد تسألني: من هؤلاء وما جنسهم وأيّ قلبٍ يملكون وبأي صفات يتخلقون؟

أقول لك وبكل صراحةٍ وصدقٍ بل وبكل أسف إنه لا جنس لهم شبيهاً بالبشر، ولا قلوب لهم إلا عند بني إسرائيل، إن لم يكونوا أقسى منهم قلوباً، فلا شبيه لهم إلا هم حيث نصّبوا من أنفسهم آلهةً على الناس، فقتلوا الرجال، ويتّموا الأطفال، ورمّلوا النساء، وما احترموا شيخاً كبيراً ولا امرأةً عجوزاً، حتى لم يسلم منهم الحجر ولا الشجر ولا الدواب، ولذلك كنا نحسب للغداء حساباً لما سنلاقي من ألمٍ في الحصول عليه!

فما أن ينتهي الزبانية من عملية التفقد التي تُرعب الجميع وتجعلهم في حالة صمتٍ وسكونٍ، ملتجئين ضارعين إلى الله يطلبون السلامة لهم لإخوانهم الذين يخوضون غمار المعركة مع الزبانية، حتى نسمع أصوات قصعات الطعام تدوي في سماء الباحة، وعلينا الآن أن نستعدّ لتوزيعها بالجاطات البلاستيكية على أبواب المهاجع، إذ لكل مهجعٍ جاطان من البرغل أو الرز، وجاط واحدٌ من المرقة، مع العلم أنّ المسافة التي سيقطعها الأخ حاملاً لهذه الجاطات تتراوح ما بين ٥٠-٢٠٠ متر، ولا بدّ له من أن يكون منكّس الرأس في مشيته لا ينظر إلا إلى أمامه، يحمل جاطه وهو يركض مسرعاً والكرباج يلاحقه من شرطةٍ

استلمت نوبتها من جديدٍ، وتظنّ أنّ هؤلاء لم يعاقبوا اليوم أبداً، ولذلك يُعملون بهم كرابيجهم بكل وحشيةٍ وقساوةٍ، والويل كلّ الويل لمن يسقط جاطه على الأرض، أو يسقط من جاطه شيء فإنّه سيدخل إلى المهجع محمولاً لا محالة من كثرة ما سيناله من الضرب والركل والرفس.

إلاّ أنّ الأصعب من ذلك كله توزيع الخبز على المهاجع، حيث كانوا يعبؤون الخبز في أكياسٍ كبيرةٍ، وعلى الأخ أن يحمل هذه الأكياس ويركض فيها مسرعاً والكرباج وراءه حتى يضعه أمام المهجع المخصص له، ثم يعود ليجلب غيره إلى مهجعٍ آخر، وهكذا حتى ينتهي من هذه المهمة، فيكون قد وصل إلى مرحلة من التعب والإنهاك بسبب الضرب والتعذيب ما لا يمكن لأحدٍ أن يتحمله أو يتوقعه.

والصعوبة في ذلك أنّ هذا الأمر يتكرر كل يوم مرّتين على الأقل، فمن أين لك أن تجلب إخوةٌ يستطيعون الخروج في اليوم الثاني، ولا بدّ من أخوة جدد...!! وهكذا كانت هذه المهمة من أصعب المهمات المفروضة علينا، والتي لا يمكن لنا التخلص منها، إلا أنّ الله جلّ جلاله كان يحفّنا بألطافه ويحمينا بحمايته التي كانت تشدّ من عزائمنا وتقوّي من إيماننا، وأما تدخيل الخبز إلى داخل المهجع فهو من أصعب المهمات حيث يحتاج إلى وقت أكبر، لأنّ الخبز سيكون كومة فوق بعضه على باب المهجع، وعلى السخرة أن تُدخله ربطةً ربطة، وهكذا يبقى الإخوة تحت ضربات الكرابيج فترة أطول ليدخل كلٌ منهم وكأنه كان في عراك مع ذئبٍ غادرٍ جائعٍ نهش منه حتى أشبعه عضّاً!

ومن المضحكات التي كثيراً ما كانت تحدث معنا أنّ المرقة عندما تُكبّ في المهجع من يد أحد الأخوة أثناء الدخول يسارع البعض بشربها ولحسها من على الأرض حتى لا تضيع الفائدة منها!

ولا بدّ من لفت الأنظار إلى أنّ الطعام يأتي من الخارج بأوعيةٍ تُسمى "البلوّات"، وهي طناجر كبيرة (نصف برميل)، ثم يقوم أفراد البلدية بإفراغها على جاطاتٍ بلاستيكيةٍ بعدد مستحقات المهاجع، بعد أن يستخرجوا زهوة الطعام لهم وللشرطة، وخاصةً إذا كان على الطعام لحمٌ فإنهم ينتقونه ويأخذونه ثم يتركون العظام وقليلاً من الجلاميط التي لا تُؤكل، ومن هذه المظاهر نعرف أنّ اللحمة من مخصّصات السجن، إذ لا يمكن لك أن تراها في سجن تدمر!

وكم من مرّة رأيت بأم عيني عناصر البلدية يأكلون اللحوم من على الجاطات كلٌ بدوره، ثم يعبؤون منها في أوعيةٍ لهم، ثم يرمون بالعظام في جاطات المهاجع التي ستُوزّع على المهاجع، وباختصار.....أستطيع أن أقول: ما زاد عنهم أطعمونا إياه!

كما أذكر يوماً عندما نظرت خفيةً إليهم وهم يُفرغون الطعام في الجاطات وإذا بأحدهم يبول في قصعة المرقة الكبيرة، وللعلم فقط أنّ الجاطات التي تُعبّأ بالطعام لم تُنظف من الأوساخ، ولذلك كان الطعام الذي يأتينا مزّيناً بأنواع من الزبالة وبقايا الكناسة العالقة في الجاطات، وما علينا إلا تنظيف الطعام من الأوساخ التي اختلطت به قبل أن نقوم بتوزيعه على أفراد المهجع.

وما أن تنتهي السخرة من توزيع الجاطات على المهاجع حتى يأتي الزبانية لإدخالها إلى المهاجع، والآن لا بدّ من أربعة أو خمسة أشخاص شجعانٍ لإدخال طعام الغداء، وذلك بعد أن يقدم رئيس المهجع الصف، فيخرج الشباب، ويبدأ الضرب بالكرابيج والسياط والرفسات، والويل لمن يسقط من جاطه شيء فإنّ حفلة جديدة من الضرب والتعذيب ستُقام من أجله.

وما أن يدخل الطعام إلى داخل المهجع حتى يقوم شخص أو شخصان بتكليفٍ من رئيس المهجع بتوزيعه على المجموعات، حيث تبلغ حصة الفرد بقدر كأس شايٍ صغيرٍ من البرغل أو من الرز، إضافةً إلى نصف كأسٍ من المرقة، وما بين خبزتين إلى ثلاث خبزاتٍ

يومياً، إلا ما كان في عام ١٩٨٧م. حيث تقلّصت كمية الطعام بشكلٍ كبيرٍ وخاصةً الخبز حتى وصلت حصة الفرد إلى ثلث الخبزة في اليوم الواحد، وقد سمّيت هذه الفترة عند أفراد السجن بـ"أيلول الأسود" لشدة الجوع الذي ألمّ بهم، والذي كان سبباً رئيسياً في إصابتهم بمرض السل الذي فتك بالمئات بل بالآلاف الذين باتوا طريحي الفراش، أو لا أبالغ إن قلت لك أنهم أصبحوا في حالة موتٍ سريري.

وأما عن "الدوسير" الذي يأتي مرافقاً مع الغداء فأعلم أنّه يأتي على مبدأ "شم ولا تذّوق"! فإن كان "الدوسير" برتقالاً فاعلم أنّ حصة الفرد حزٌ واحد، أي أنّ البرتقالة لعشرة أشخاص، ومن المهم أن تعرف كيفية دخول هذا "الدوسير" إلى المهجع، فغالباً ما يأتي أثناء التفقد، حيث يضربوننا به ونحن ندخل من التفقد الى المهجع، فما أن ننتهي من الدخول حتى تكون كمية الدوسير المخصصة لنا قد ضربونا بها كلها، أي أصبحت داخل المهجع، وعلينا أن نلملمها ونوزّعها.

وأذكر مرّةً أنّ "الدوسير" كان جبسةً واحدةً إلا أنّ الشرطة كانوا قد كسروها فأكلوا نصفها أمامنا في التنفس وأعطونا النصف الآخر، وكنا ٢٠٠ شخص!

بعد توزيع الطعام على المجموعات ينبغي عليك أن تنتقل إلى مكان مجموعتك بشكلٍ هادىءٍ وصامت حتى لا تنقلب وجبة الطعام إلى عقوبة.

وبعد تناول الطعام . إن مرّ بخير . قد يفكر أحدنا أن يأخذ شيئاً من الراحة، فهناك متّسعٌ من الوقت حتى التنفس المسائي، إلا أنه يُفاجأ بالحرس الذي أعدّ له خطةً لإزعاجه حتى لايترك له مجالاً للراحة أبداً، فلا تراه إلا على شراقة السطح يصيح بك بلهجته النصيرية الحاقدة: قم ولا...أنت الذي تنظر إلى الأعلى، وعليك الآن أن تتحمل مسؤولية نومك أو نظرتك أو حركتك أياً كانت، وذلك بأنواع كثيرة من العقوبات (سنتكلم عنها في وقتها)، أو أن يُصدر أمراً للمهجع كله بقوله: ممنوع النوم..... أو على الجميع الوقوف على الحائط

ورفع اليدين إلى الأعلى.... ويمكن أن نبقى على هذه الحالة ساعاتٍ أو على الأقل حتى تنتهي نوبته.

التنفّس المسائي

وأمّا التنفس المسائي فيكون بعد العصر، حيث يأتي السجانون ومعهم الكرابيج وهم يرفعون أصواتهم بالسباب والشتائم، بينما تبدأ القلوب بالخفقان والوجوه بالاصفرار، ليُفتح الباب ويأمر زعيم الزبانية رئيس المهجع بإخراج عشرة أشخاصٍ من المهجع وكلّ واحدٍ بيده بيدونٌ من الماء يحمله ويركض به ليرشّه في الباحة والكرابيج تلاحقه من كل جانب، وهكذا حتى تمتلئ الباحة بالماء الممزوج بالتراب، ثم نؤمر فنخرج إلى الباحة ونجلس على الأرض المروية، وكالعادة منكسي الرؤوس مغمضي العيون فتبدأ الكرابيج تعمل في ظهورنا بشكل أشدّ هذه المرّة، فالشرطة قد استلمت نوبتها للتّو، ويحسبون أنّ هؤلاء لم يعاقبوا اليوم، حيث يتذرّع السجانة بأي ذنبٍ أو بأي خطأ أو بأي حركةٍ من أي شخصٍ ليتسلوا عليه ويُمضوا ساعتهم بالضرب والقتل والتشويه، ويكفيك أن تسمع أصوات الكرابيج التي تدوّي في سماء الباحة دوّياً ممزوجةً بأصوات الضحايا التي تتلقّى هذه الضربات المؤذية.

ولا زلت أذكر بعض المواقف التي لا يمكن أن تُنسى أبداً عندما طُلب من رئيس المهجع أن يُخرج مشاغباً فلم يُخرج أحداً وكرّر الأمر مرّتين فلم يُخرج أحداً فقال له: تعال أنت....واكشف عن ظهرك ثم اجلس جاثياً؛ فجلس المسكين كجلسته للصلاة في سجوده وظهره مكشوف، وبدؤوا بضربه بكلّ وحشيةٍ وقسوةٍ دون أي رحمةٍ أو شفقةٍ، إلا أنه لم يستطع الثبات في جلسته تحت هذه الضربات فنادى الشرطي أن يأتي شخصٌ ليثبته، فخرجت وأنا أعلم بأنه سيطالني الكثير من الكرابيج، ولكن لا بدّ من خروج أحدنا، فتبرعت بالخروج، وأخذت أثبّت هذا المسكين الذي ما أن تأتيه ضربة الكرباج حتى يقفز في السماء دافعاً إيّاي أكثر من مترين ثم يعود على ما كان عليه، ويعودون لضربه وضربي على يديّ حتى أصبح ظهره كأنه الزفت في السواد، وهكذا لا تنتهي هذه الحفلة حتى يسقط العشرات بين مصابٍ ومحطّم لا يستطيع النوم على الفراش بعد اليوم!

وبعد تلك المعركة الحامية الوطيس تأتي معركة الدخول التي تُسقط بعضهم وتعطب بعضهم الآخر حتى يدخل الجميع ويجلس كلٌ في مكانه لا يلتفت إلى ورائه حتى يُغلق الباب، وهنا لا يبقى لنا إلا "غزوة" العشاء الذي ننتظره لننهي يوماً من التعب والمشقة، وما هي إلا دقائق حتى نسمع أصوات الأبواب لإدخال طعام العشاء، فيخرج شابان شجاعان ليُدخلا جاطاً فيه من المرقة التي لا نستطيع على كشف ما فيها في بداية الأمر إلا من خلال ما يخرج من حباتٍ في أسفل الجاط من حمّص أو عدس أو فاصولياء، حيث توزّع على الزبادي لتُنقل بعدها إلى المجموعات ويشرب كلّ واحدٍ من أفراد المجموعة شربةً أو شربتين مع قليلٍ من الخبز، ليُقنع نفسه بأنه قد شبع مما رزقه الله، لكن ليكن بعلمك أنّ شربك لهذه السوائل سيكلّفك مزيداً من الصعوبات المختلفة التي سأسوق لك واحدة منها، وكثيراً ما كانت تحدث عندما يخرج الأخ ليُدخل الشوربة مثلاً وتكون ساخنة جداً، حيث يؤمر بوضع يديه في الجاط لتُلدغ من شدة حرارتها وسخونة السائل المعدّ للعشاء.

بعد ذلك يظن الكثير منا أنّ الوقت حان للراحة، فقد انتهى كل ما يُنغّص الحياة لهذا اليوم من مشقةٍ أو تعبٍ أو خوفٍ أو سماعٍ لأصوات تعذيبٍ، إلا أنّ ذلك لا يطول كثيراً، حيث تقترب الساعة من السادسة مساءً، أي أنّ الوقت قد حان للنوم، ليأخذ كلٌ منا مكانه المخصص لينام فيه، فكم تبلغ تلك المساحة؟

النوم والحرس الليلي

اعلم يا أخي أنّ نظام النوم في السجن نظام فيه من القساوة ما لم يوجد في غيره، وصحيح أنّ الشرطة لا يمكنها الوصول إلى أي سجينٍ في هذا الوقت، فالأبواب مغلقةٌ ولا يوجد سوى الشّرّاقة التي يقف عليها الشرطي فيراقب الناس ويعذبهم بشتى أنواع العذاب التي يستعملها بأيدي أفراد المهجع، لكن اعلم أنّ حصتك في النوم هي شبرٌ وإصبعين فقط، حيث أنّ مهجعاً بطول ١٨م وعرض ٥ أمتار سينام فيه ٢٠٠ شخص، فكيف يمكن لك أن تتخيل ذلك، وباختصارٍ أستطيع أن أوضّح لك ذلك بأن كلّ ثلاثة أشخاصٍ ينامون على مساحة عازلٍ واحدٍ، والذي تبلغ مساحته ١٨٠سم×٨٠ سم، فإذا ما وضع شخصٌ رأسه من طرفٍ وجب على الآخر أن يضع رأسه من الطرف الآخر، كما أنّ وضعية النوم سوف تكون على جنبه حصراً لعدم السعة أولاً، ولأنّ النوم على الظهر ممنوع، لأنّ ذلك يدل على أنك مرتاحٌ في نومتك، وهذا ليس من معاني السجن ولا من نظامه!

كما أنّ على كل شخصٍ تحضير طميشة يضعها على عينيه أثناء النوم، إذ أنه ممنوعٌ على أحدٍ يريد النوم دون أن يضع طميشةً على عينيه ثم ينام دون أي حركةٍ حتى بعد نومه، فالحركة والتقلّب ممنوعٌ في نظام السجن ولو بقيت حتى الصباح على جنبٍ واحدٍ، إلا ما استطعت إلى ذلك دون أن يراك السجان!

كما يجب عليك أن تعرف أنه لا يجوز لك أن تخرج إلى الحمّام ليلاً مهما كانت الظروف ولو كنت مريضاً، فإنّ ذلك سيعرّضك للخطر والعقوبة، وباختصار عليك أن تعرف أنك إذا نمت على ظهرك أو كنت بدون طميشةٍ على عينيك أو تحركت ذات اليمين أو ذات الشمال فاعلم أنّ هذه الأمور خطوطٌ حمراء عليك أن تتحمّل مسؤولية تجاوزها بأنواع مختلفةٍ من العقوبات الداخلية، ريثما يأتي الصباح ليكمل العقوبة في الباحة عند إدخال الفطور!

إلاّ أنّ المهة الأصعب في ذلك هي مسألة الحرس الليلي، وهذا المصطلح خاص بسجن تدمر، وهو أن يقف شخصٌ بوضعية الاستعداد ودون أن يتحرك على باب المطبخ لمدة ساعتين، ثم يأتي غيره وهكذا حتى الصباح، حيث يتبدل على ذلك ستة أشخاصٍ يومياً، وعلى كل أخٍ منهم أن يكون شديد الانتباه وخاصةً إذا جاءه أحد الزبانية الذي قد يأتيه خلسةً من أجل أن يُمسك عليه ولو خطيئةً بسيطةً، من أجل أن يُنزل به العقوبة، والويل كل الويل لمن جاءه الحرس ليلاً ورصد عنده رجلاً في الحمّام . ولو كان مريضاً أو مضطراً . فإنّ العقوبة ستطال الاثنين معاً، وقد يكتفي بأن يأمرهما بخلع ثيابهما والبقاء واقفين مع رفع أيديهما مدة نوبته، ثم يكمل العقوبة صباح اليوم الثاني، أو أن يصبّ عليهما كمياتٍ من الماء البارد بعدما يأمرهما بالانبطاح على أرض المطبخ المتسخة والمملوءة بالأحذية البالية، وهكذا قد يبقى الأخ على هذا الوضع مدة ساعتين على الأقل.

ولا زلت أذكر مرّةً ذاك الأخ الذي وقع فريسةً بين يدي سجّانٍ جبارٍ ظالم، كان ذلك الأخ قد تحرك في نومته دون أن يشعر بنفسه، حيث طلب الشرطي من الحرس الليلي أن يوقظه ويأتي به إلى ساحة الحمّام، وأمره بخلع ثيابه ثم الانبطاح في أرض المطبخ المتسخة، وكان ذلك في شهر كانون الثاني أي في أشدّ حالات البرد والثلج، حيث أنّ أرض المطبخ متجمّدةٌ بما فيها من ماءٍ، إلا أنّ الأمر لا بدّ سيُنفّذ، واستسلم ذاك الأخ للأمر، لكن الشرطي لم يكتف بذلك فأمره أن يضع في فمه شحاطةً قديمةً لا تستطيع أن تنظر إليها من شكلها وقِدمها، فكيف يمكن لك أن تضعها في فمك.... لكنه الأمر الذي لا يمكن مخالفته، ولم يكتف الشرطي بذلك أيضاً، فأمر الحرس أن يصبّ عليه من الماء المثلّج في البيدونات، حيث أمره بصبّ بيدون ماءٍ عليه كلّ عشر دقائق، وهكذا حتى انتهت نوبته وظننا أنّ الأمر قد انتهى حيث سيأتي آخر لم يعرف بما فعل زميله، فنهض الأخ ولبس ثيابه وذهب إلى فراشه عسى أن يستعيد شيئاً من الدفء، إلا أننا تفاجأنا بأنّ الحرس الجديد جاء وسأل عنه فلم يجده، وهنا وقعت الكارثة مرّة أخرى، ويبدو أنّ الحرس الأول قد أوصى زميله بذلك، فقام الأخ من جديد وأخذ بصبّ الماء والضرب بالشحاطات من قبل الحرس الليلي

تنفيذاً للأوامر التي أتته بدوره، وبقي الأخ حتى الساعة السادسة صباحاً حيث حانت ساعة الاستيقاظ وإذا بجسده أزرقٌ وكأنه الباذنجان وقد تجمّد، والرجفان لا يغادر شفتيه وأعضاء جسده، فلبس ثيابه وجلس في مكانه ينتظر بقية العقوبة عند دخول الفطور!

المحطات الأسبوعية

عرضنا سرداً بسيطاً عن سير الحياة اليومية في السجن وكان ذلك على سبيل المثال لا الحصر، إذ يستطيع كل شخصٍ أن يقصّ مسيرة حياته ومآسيه الخاصة التي لقيها على أيدي الزبانية وهي بالمئات، والآن سنعرض محطاتٍ جديدةً هي أصعب من الأولى بكثيرٍ تواجهنا ونواجهها في كلّ أسبوعٍ مرّةً مهما كانت الظروف، وتتمثل بالحلاقة والحمّام، وسنتكلم عن كلّ واحدةٍ على حده.

الحلاقة

وهي برنامجٌ أسبوعيّ لكل فردٍ من أفراد السجن كافةً صغيراً كان أو كبيراً، شاباً كان أو عجوزاً، عليه شعرٌ أم لم ينبت بعدُ على ذقنه! فهي "غزوةٌ" أسبوعيةٌ وعلى الجميع الاستعداد لها وكل مهجعٍ بدوره، حيث يطلب زعيم الزبانية من رئيس المهجع أن يُخرج كلّ عشرة أشخاصٍ مع بعضهم إلى خارج المهجع ليصطفوا على الحائط مغمضي العيون منكسي الرؤوس وأيديهم وراء ظهورهم، بينما يبدأ الحلاقون (وهم من العناصر النصيرية الذين فرّوا من الجيش، أي أنهم أخسّ وأحقد وأرذل من الشرطة) حيث يكون عدد الحلاقين ستة أشخاص، ثلاثةٌ للرغوة وثلاثةٌ للحلاقة، فإذا ما اصطفّ الأخ السجين أمام الراغي فاعلم أنّ وجهه سيمتلئ رغوةً بالكامل وخاصة أنفه وشواربه، ثم ينتقل إلى الراغي الثاني والثالث الذي يكمل الرغوة ويكثفها على وجهه حتى كأنه كرة ثلجٍ من بياضه، والويل لمن تنفّس بقوةٍ أو نفخٍ في وجه ذاك المجرم، فإنّ موعده بالإنتقام والعقوبة جاهزٌ وبالحاضر؛ حتى إذا ما انتهى من الرغوة وانتقل إلى الحلاق الذي سيتعلم الحلاقة في وجهه، فالأخ فينا يُعتبر كحقل تجارب للتعليم والتجربة، إذ يمكن لك أن تعدّ عشرات الجروح في ذقن الأخ دون أن يصرخ أو يتكلم خشية تعرّضه للعقوبة، على الرغم من أنّ العقوبة ستطاله لا محالة في النهاية، لكنها ستكون مدعومة إذا ما جاءت الشكوى عليه؛ وما أن ينتهي من بين يدي ذاك الجزار حتى تطاله يدا الشرطي الذي ينتظره على أحرّ من الجمر ليأمره بالانبطاح، وينهال عليه ضرباً وركلاً ورفساً حتى يدميه ويشوّهه، ولربما بقي تحت السياط حتى يأتي أفراد مجموعته الذين خرجوا معه وشاركوه في معركته القاسية التي يخوضها معهم، وهكذا حتى يدخلوا إلى المهجع ويخرج آخرون، وعلى نفس المنوال يسيرون وتحت نفس الكرباج ينبطحون، إلا أنهم ما أن ينتهوا من تلك الحلاقة الرهيبة ويُغلق الباب وراءهم وينظرون إلى وجوه بعضهم فيندهشون من رؤية بعضهم ومدى التشويه الذي أصابهم وكثرة الجروح التي شققت خدودهم

دون أن يشعر أحدهم بشيء وهم بين أيدي الجلادين والحلاقين، حيث أنّ "الفزع يطيّر الوجع" كما يقال!

ولا زلت أذكر ذاك الشاب الحلبي الذي كان له على لحيته نتوءٌ نافرٌ يشبه الشامة فكان لا يخرج إلى الحلاقة إلا وذلك النتوء سيكون مبتوراً كما تُبتر الشعرة من الذقن، ويأخذ الدم بالنفور إضافةً لبقية الجروح التي ما أن ترى الدم النازف منها حتى يتقطع قلبك على تلك الضحية، فضلاً على أنّ الشفرة التي تحلق لشخصٍ أو شخصين في العادة تحلق هنا لأكثر من سبعين شخصاً، ولذلك كان من الطبيعي لمن يخرج من بين يدي الحلاق أهون وأسهل من أن يخرج من بين يدي جّزار مبتدئ يتعلم به تلك الصنعة!

ولا يُستثنى من هذه الحلاقة أحد حتى لو كان شاباً صغيراً لم ينبت له على ذقنه شعرٌ بعد، وهو ما كان يحصل معنا، إذ دخلنا السجن وكنا بسنّ السابعة عشر، ولم نكن نملك شعراً في ذقوننا آنذاك، فكنّا نُذبح ذبحاً ولا بدّ لنا من الخروج للحلاقة والمرور بين يدي الرغاة ثم الحلاقين ثم الجروح والدماء ثم الكرابيج والسياط والركل واللكم والرفس... لأنها بمثابة "النعيماً" التي لا بدّ منها!

هذا ما يخصّ حلاقة الذقن الأسبوعية، أما حلاقة الشعر التي تأتي في الأسبوع الثالث من الشهر فتلك معركةٌ بنكهةٍ أخرى، حيث نخرج إلى الباحة كالعادة لكن علينا هذه المرّة أن نجلس جثيّاً على الأرض وأيدينا وراء ظهورنا وأعيننا مغمضةٌ ورؤوسنا بين يدي الحلاق الذي يعبث بشعرنا بماكينته التي تنتزع الشعر انتزاعاً، فما تشعر بنفسك إلا أنك تتحرك مع الماكينة حيث تحركت يده، إذ لا تستطيع تحمّل انتزاع شعرك وليس لك أن تصرخ لأنّ ذلك ممنوع، كما ليس لك أن تعترض أو تتذمّر أو أن تقوم بحركةٍ مثيرةٍ فإنّ الشرطي ينتظرك بفارغ الصبر ليكمل معك المشوار، حتى إذا ما انتهيت من تلك الحلاقة ودخلت إلى المهجع ونظرت إلى غيرك أخذتك الدهشة والاستغراب من هذه الوجوه المشوّهة وتلك الرؤوس المنتوفة التي أصبحت وكأنها حبات القرع اللامعة، فيأخذك الضحك العفوي على هذه

الأشكال الغريبة، والتي ستصبح مألوفةً عندك تماماً، بل ولن ترى غيرها بعد اليوم! وفعلاً إنها أشكالٌ مختلفةٌ لم تكن تألفها من قبل... فهذا قد حُلق نصف شعره، وذاك قد حُلق شعره وتُركت له بعض الشعرات هنا وهناك... وهذا تمّ تشويه حلاقته قصداً للضحك والتسلية..... وهذا.. وهذا.... وشرّ البلية ما يُضحك!

ولا تظنّ أنّ شكلك أو حالك سيكون أحسن منهم، بل قد تكون أسوأ منهم حالاً وشكلاً وصورةً دون أن ترى نفسك.

وما كنّا نتذكر عند حلاقة الشعر إلا حلاقة "الخواريف" التي تخرج من بين يدي صاحبها بعد أن جعل من ظهورها خطوطاً متعرّجةً خطّها بماكينته الجديدة، وذلك دون أن يطالها شيء من الضرب والتعذيب، بل على العكس فإنك تشعر من حالها وكأنها تركت بين أيد أمينة ترعاها وتعطف عليها؛ لكنّ وجه الشبه بيننا وبين تلك الخراف في هذه الحلاقة هو تلك الخطوط التي خلّفتها الماكينة، إلا أنها عند الخراف تكون نتيجة عدم خبرة صاحبها بالحلاقة، وأما عندنا فتكون نتيجة سوء الماكينة التي تحلق نصف الشعر وتنزع النصف الآخر من جهةٍ، ومن حقد الحلاق وخبثه وعدم معرفته بالحلاقة فهم يتعلمون الحلاقة برؤوسنا؛ كما أنّ الخراف تنعم بأيدٍ رحيمةٍ تحلق لها شعرها على عكس ما كنا عليه في السجن حيث أنّ الأيدي التي تعبث برؤوسنا لا تعرف من الرحمة حتى اسمها، فكيف يمكن أن تعرف شيئاً عن معانيها!

الحمّامات

يبدو من العنوان أنّ النظافة في السجن من أهمّ وأولى اهتمامات الإدارة، حيث يتبادر إلى الذهن . وكما هو معروفٌ . أنّ الحمّام ساعةٌ من الاسترخاء بماءٍ دافئٍ وصابونٍ معطّرٍ، إلا أنّ العكس هو الصحيح تماماً، فإنّ الحمّام في منظومة سجن تدمر كارثةٌ من الكوارث الحقيقية التي لا مهرب منها ولا مفرّ بأي حالٍ من الأحوال، فهو حمّام دمٍ ينزف من أجسادٍ لم تكتنز من الدم أكثر مما يكفيها لمتابعة حياتها!

والحقيقة فإنّ هذه الغزوة هي من أصعب "الغزوات" إن لم تكن أصعبها على الإطلاق، ويكفي من صعوبتها أنه إذا ما ذُكر اسم الحمّام أو ما يشير إليه من زعيم الزبانية لمهجعٍ ما فإنّ ذلك كفيلٌ بأن يُصيب الكثير من أفراد المهجع بالإسهال خوفاً مما ينتظرهم بعد دقائق، ومما أُعدّ لهم وهم عراةٌ إلا مما يستر عوراتهم، فلك أن تتخيل أنّ أكثر من مئتي شخصٍ يقفون مغمضي العيون منكسي الرؤوس وأيديهم وراء ظهورهم وهم عراةٌ ويحيط بهم جلادون بأيديهم السياط التي خصصت من أجل جلد الظهور!

وأما عن الآليّة التي يتمّ بها الحمّام في السجن فتبدأ من نداء زعيم الزبانية بصوته النصيري الحاقد قائلاً: الجميع بالشورت خلال عشر ثواني.

وبالفعل وخلال ثوانٍ يبدأ الناس بالخروج من باب المهجع وهم بالشورت فقط، بينما ينتظرهم الزبانية على الباب ليكيلوا لهم الضربات القاسية، وهكذا يصطفون في الباحة بالوضعية التي أصبحت معروفةً ريثما يكتمل خروج الناس من المهجع، والسياط والكرابيج تعمل في ظهورهم وتدوّي أصواتها في سماء الباحة دوياً، وما أن ينتهي خروج الناس من المهجع ويبدؤون بالمسير إلى الحمّامات التي أُقيمت في الباحة الأولى، أي أنك تحتاج لعبور ثلاث أو أربع باحات حتى تصل إلى باحة الحمّامات، وهذه كارثة بحدّ ذاتها، إذ لا يمكنك أن تجتاز من باحةٍ إلى باحةٍ أخرى حتى يطالك من الكرابيج الإضافية ما لم تكن تحسب له

حساباً، فباب الباحة بعرض ٥.١م وقد أُغلقت منه "درفة" أي أصبح عرضه ٧٥سم فلا يمكن إلا أن يجتازه شخص وراء آخر، وهذه صعوبةٌ إضافيةٌ وإن كانت جزءاً منها، إلا أنّ الصعوبة الحقيقية التي خبئت لك ما قبل الباب وما خلفه، فما أن تصل إلى باحةٍ وتريد اجتيازها إلى باحةٍ أخرى حتى يطالك كرباجُ من على بابها، وإذا كنت سريعاً وأخطأك فاعلم أنّ الذي خلف الباب لن يخطئك أبداً، وهكذا تصوّر كم ستجتاز من الباحات المفخّخة ذات الفخاخ الصائبة قطعاً حتى تصل إلى باحة الحمّام وقد أُنهكت من الركض أمام الشرطة، متهرباً ذات اليمين تارةً وذات الشمال تارةً أُخرى لعلك تخلص من ضربة كرباجٍ قاسيةٍ أو رفسةٍ غادرةٍ!

ولا يقتصر وجود الشرطة عند أبواب الباحة فقط، وإنما هم مرافقون معك في سيرك خطوةً خطوةً، حتى إذا ما انتهيت إلى باحة الحمّام قسّمونا إلى قسمين: قسمٌ يدخل إلى ليستحمّ، وقسمٌ آخر ينتظر خارجاً تحت السياط، وليس حال من هم في الداخل بأفضل من حال المنتظرين خارجاً، فكلاهما في العذاب سواءٌ، حيث ينادي زعيم الزبانية لمن في داخل الحمّام: أنّه خلال دقيقتين سيكون الجميع خارج الحمّام، وهنا كثيراً ما كانوا يدخلون علينا بسياطهم لتمتزج السياط بالماء الساخن الذي يسلخ الجلد من شدة سخونته، أو بالماء شديد البرودة الذي يجمّد الدم في العروق، وأنت بين هذا وذاك ولن تخرج إلا وظهرك مضرّجٌ بشتى ألوان العذاب، فضلاً عن حقدهم وحقارتهم التي كانوا يلقونها علينا، وهي أن يأمرونا بخلع الثياب في الحمّام ليضحكوا ويتسلوا علينا، ولأنهم يعلمون أنّ هذا ما يغيظنا، والويل لمن يخرج ولم يبدُ عليه أثر الاستحمّام.

وما أن ينتهي الوقت الذي خصّصه الرقيب حتى يدخل الشرطة إلى السجناء ويبدأ بضربهم داخل المقصورات حتى يخرجوا عن آخرهم، بينما يتلقى الذين ينتظرون في الخارج السياط على ظهورهم، والتي يدوّي صوتها في السماء دوياً مرعباً، داعين ربهم التخفيف عنهم وعن إخوانهم الذين ينالهم العذاب معهم، حتى يدخلوا ويستحموا بدورهم ليصيبهم مثل ما أصاب

إخوانهم الذي سينتظرهم الآن خارجاً، وينالون كرابيج "النعيماً" بعد هذا الحمّام المهذّب والمليئ بالكرابيج والسياط والرفسات! وما أن تخرج الدفعة الثانية من الحمّام ويتجمّعوا ثانية في باحة الحمّامات وتطالهم كرابيج "النعيماً" التي لا بدّ منها، يمرّ الزبانية وينظرون إلى أجساد الناس لعل أحدهم لم يستحم فينالله العذاب المضاعف، وهم يعرفون تماماً أنّ الناس لا تعتمد على هكذا حمّام، فهم برمجوا حرارة المياه النازلة من المقصورات بدرجة حرارة الغليان التي تحرق الأجساد، أو بدرجةٍ باردة تجمّد الدم في العروق، وفي كلا الحالتين لا يستطيع الإنسان تحملهما، ولذلك كثيرا ما كان كلٌ منّا يحرص على أن يبلّل شورته ليُفسح المجال لغيره ويوهم الشرطة أنّه قد استحمّ!

وهكذا حتى تبدأ رحلة العودة الى المهجع وهي المحطة الأخيرة في هذه "الغزوة"، ولعلها أصعب مرحلةٍ فيها، فالسياط تُلهب الظهور بكلّ قسوةٍ ووحشيةٍ، وترانا نركض أمام هؤلاء البرابرة الأشرار ركض الخراف أمام الذئاب الجائعة، لتأخذها فريسةً ولقمةً سائغة!

ونحن في هذه المعركة لسنا بأقل من هذه الخراف، بل أصدق إن قلت لك إنّ الأمر أكثر من ذلك قمعاً وحقداً ووحشيةً، ويتجلى ذلك بالأصوات التي تخرج من جراء هذا التعذيب، أصوات الصياح والعويل المرعب ممزوجة بأصوات السياط التي تُسمِع بصداها السجن كله، فتجعل أفراده جميعاً في حالة سكونٍ وذهولٍ مما يصيب إخوانهم من سوء العذاب على أيدي هؤلاء الظلمة، والويل كل الويل لمن كان وقوفه في مؤخرة الصفوف، لأنه سيتحمل أكثر مما يتحمّل المهجع بأكمله؛ ولا زلت أذكر أخاً لنا تبرّع مرّة بالوقوف في مؤخرة الصف في طريق العودة الى المهجع، إيماناً منه وفداءً عن إخوانه، حيث تلقّى من الضربات ما لو تلقّته الجبال لاستغاثت من هول ما أصابها، وعندما وصل في طريقه إلى مكانٍ يُوزّع فيه الطعام عادة زلقت قدمه وسقط متدحرجاً، وأخذت السياط والكرابيج والركلات تلعب بكامل جسده، حتى إذا وصل إلى المهجع لم نستطع تمييز لون جسده من سواد الشحّار الذي ألمّ به، ومن زرقة لون ضربات السياط؛ وما أن وصلنا الى المهجع وأُغلق الباب أخذ الناس

ينظرون الى إصاباتهم ليواسوا بعضهم في هذه المصيبة، ويحمدوا الله على أن خلّصهم منها بخيرٍ وسلامٍ، فالموت محيطٌ بهم من كلّ مكانٍ وجانب.

ومن المضحكات المبكيات التي أرى من الضروري ذكرها في هذا المجال أنه عند انتهاء الحمّام والخلاص منه عليك أن تعلم أنه يتطلب منك أن تدفع أجرته وهي خمس ليرات للفرد الواحد آنذاك، أيّ ما يعادل ٢٠٠ ليرة في الأيام الحالية؛ ولا مفرّ من ذلك على مبدأ "دبّر حالك"، ولذلك يندفع من كان قد احتفظ بشيءٍ من ماله ليدفع عن الجميع ويقيهم عقوبةً هم بغنىً عنها، إلا أنّ الله أراحنا منها بعد ذلك حيث تمّ إلغاؤها فيما بعد.

هذه صعوباتٌ هائلةٌ حقاً نحن بصددها وهي لنا بالمرصاد لا محالة، ولكنّ الصعوبة الكبرى التي ألفت النظر إليها، والتي من الصعب عليك أن تتخيّلها، وهي الخروج بالشورت الى الحمّام في هذا الجوّ الصحراوي القارص والشديد البرودة تحت السياط والكرابيج، وكثيراً ما يتمّ توقيفنا في الباحة لفترةٍ على هذه الحالة لسببٍ أو لآخر، حيث يجتمع علينا الخوف من كل جانب، ويهتز كيان الإنسان بأكمله من رجفان الخوف ورجفان البرد القارص، وليس لنا الا الله الذي نتضرّع اليه ونحتمي به ونلتجئ إليه.

المحطة الشهرية

التفتيش

وهذه المحطة لا تحدث إلا في الشهر مرّة واحدةً أو أحياناً كل عشرين يومٍ مرةً، وذلك بأن يطلب السجانون من رئيس المهجع أن يضع السجناء جميع أمتعتهم إضافةً إلى أغراض المهجع كلها في منتصف المهجع، حيث تختلط الأغراض ببعضها من بطانيات وعوازل وأمتعة وغيرها، ثم الخروج إلى الباحة حيث يُحصر الجميع في مساحةٍ ضيقةٍ من الباحة وإنزال العقوبات المختلفة بهم ريثما يدخل زعيم الزبانية وبعض العناصر معه ومعهم رئيس المهجع إلى داخل المهجع ليتأكدوا أنه لا توجد أيّ حفريات فيه أو ما إلى ذلك من هذا القبيل، وهم متأكدون تماماً بل وكل من يدخل إلى السجن ولو لفترةٍ بسيطةٍ يعلم أنه لا يمكن لأحدٍ أن يقوم بأي محاولةٍ للهروب أو للتهرب، بل ويتيقن أنه لا يمكن لطائرٍ إذا ما أخطأ في دخوله إلى مهجعٍ أن يخرج منه لكثرة الاحتياطات الأمنية المتَخذة فيه، لكن هذا الأمر عقوبةً إضافيةً ليس إلاّ!

وما أن ينتهي الزعيم من تفتيش المهجع حتى يكون أفراد المهجع قد أُشبعوا من الكرابيج والسياط فيبدؤون بالدخول بعد أمر الشرطة لهم، وكالعادة فأمر الدخول يكون تحت ضربات الكرابيج، حتى إذا ما أُغلق الباب ودخل الجميع بدأ أفراد المهجع يعيدون الأغراض كما كانت، ويا لها من صعوبةٍ كبيرةٍ أن يعيد الناس كل أغراض المهجع وأمتعته الخاصة والتي اختلطت ببعضها دون أن تحدث فوضى أو أن يخرج صوت للناس، لأنه شرط لا بدّ من تنفيذه والتقيد به وإلاّ فالعقوبة بانتظارالجميع.

المحطة السنوية

التعقيم

وهذه المحطة لا تحدث إلا كل سنةٍ مرّة واحدةً والحمد لله، وهذا من لطف الله بنا، حيث يُطلب من الجميع خلع الثياب عراةً كما ولدتهم أمهاتهم، وأن يلف كلٌّ منهم جسمه ببطانيةٍ بعد أن يجمع أغراضه وثيابه وأغراض المهجع كافة ويخرجها إلى الباحة ليذهبوا بها إلى مكانٍ لا نعرفه، يزعمون أنهم يُخضعون هذه الأغراض للتعقيم فيه، بينما نبقى نحن في الباحة يلف كلٌ منا جسده بتلك البطانية ولا يظهر من جسمه شيء، وكل مخالفةٍ توجب العقوبة التي يدوّي صوتها في الباحة بين الفينة والأخرى، حتى إذا ما انتهى النهار وجاء المساء يكون الناس قد أُنهكوا من هذه الجلسة القاسية والجوّ الرهيب المليء بالخوف والرعب، عادت أغراض المهجع إلى الباحات لنعيدها ونُدخلها إلى المهجع من جديدٍ، وليعيد كلٌ منّا أمتعته إلى مكانها بعد أن تكون قد اختلطت ببعضها، وكل ذلك دون فوضى ودون حركةٍ بل ودون أي صوتٍ يُسمع.

نظام العقوبات في السجن

تختلف العقوبات في السجن من شرطيٍ لآخر ومن زمنٍ لآخر ومن ضابطٍ لآخر، فأولى العقوبات التي يُستقبل بها الشخص النزيل هي حفلة الاستقبال، وهي حفلةٌ بكل ما تعنيه الكلمة، حيث يجتمع عددٌ كبيٌر من الشرطة على عددٍ بسيطٍ من هؤلاء المساكين الذين جيء بهم ليكونوا ضحايا هذا النظام الجائر.

وآلية هذه الحفلة هي دولابٌ صغيرٌ يوضع فيه الشخص ويُقلب بحيث يصبح رأسه في الأسفل ورجلاه في الأعلى دون أن يستطيع التحرك بأي حركة، ويبدأ الجلادون بضربه كيفما أصابوه، ولا يعني وجود الدولاب أنّ الضرب سيكون على الرجلين فقط، بل عليك أن تعلم أنّ جميع جسدك مستباحٌ أمامهم، فأنت أمام جبابرةٍ وظلمةٍ لا دين لهم ولا خلق، وما وُجدوا هنا إلا من أجل الضرب والقتل والتّشفي، ولذلك فمن كنت تعرفه قبل الدولاب يصعب عليك أن تميزه عن غيره بعد الدولاب لكثرة ما أصابه من تشويهٍ ولكمٍ ورفسٍ غيّرت من شكله!

ويمكن أن تتكرّر هذه العقوبة عند وقوع أي خطأ (بنظر الشرطة)، أو أي شيءٍ أرادوا أن يلفّقوه ويُلحقوه بالناس من أجل إنزال العقوبة بهم والتعذيب لهم.

أما عن العقوبات الأخرى فحدّث ولا حرج، فهي كثيرةٌ جداً، وتختلف من شرطيٍ إلى آخر، كلٌ حسب حقده وخبثه، فإذا ما عُوقب شخصٌ داخل المهجع لأي سببٍ من الأسباب، كأن رآه الشرطيّ يضحك.. أو رآه يجلس مادّاً رجليه.... أو رآه يجلس وقد لفّ رجلاً على أخرى..... وهكذا... فكلّ حركةٍ لا تروق لهم وتدل على أنك مرتاحٌ أو مبسوطٌ في عيشك وحياتك بين أسوار السجن....فتلك وضعياتٌ محرّمةٌ في نظام السجن وتستوجب العقوبة!

كما أنّ النظر الى الأعلى محرمٌ عليك، ومثله أن تجلس مع أكثر من شخصٍ واحدٍ تتكلم معه، وعندها له الحق أن يتعرف على طبيعة الحديث الذي يدور بينكما، أما إن كان

جلوسك مع مجموعةٍ من الأشخاص فهذه كبيرة من الكبائر التي لا تُكفّر إلا بعقوبةٍ شديدةٍ تطالك وجميع الجالسين.

وإذا كان الشرطي يملك ولو ذرةً من النزاهة والأخلاق . وقليلٌ ما هم في شرطة السجن . فيمكن أن يُعاقب داخل المهجع، وهو أن يأمر رئيس المهجع أو المسؤول الصحي بتنفيذ وتطبيق العقوبة على ذاك المسكين الذي سيكون الضحية، كأن يقول له بعد أن يُحضر الشخص المعاقب: اضرب هذا.....على وجهه... وليس له طبعاً أن يخالف ذلك الأمر، كما ليس له أن يتساهل في الضرب لأنه سيكون مضروباً مثله بيد غيره؛ وهكذا قد يأمره باستخدام الأحذية البلاستيكية في الضرب على وجهه لشدة قساوتها ومدى أذيتها لوجه الأخ المعاقب، وقد لا يكتفي بالقليل من الضربات حتى يدميه ويرى بعينيه أنّ الدم قد نزف من فمه وأنفه.

وقد يأمره بخلع ثيابه والانبطاح في أرض المهجع أو المطبخ ليصب على جسمه الماء البارد، ثم بضربه بعدها بالخرطوم، بينما الاخ يستغيث تحت تلك الضربات، ولا يتركه حتى يشعر بأنه قد أنهكه فعلاً.

كما قد يأمره بالإنبطاح بعد خلع ثيابه والزحف بطريقة "كواع ورُكَب"، وهي من أصعب العقوبات، حيث تكون مصحوبةً بالضربات على ظهره بالخرطوم أو بالأحذية البلاستيكية التي تلهب ظهره.

وكثيراً ما كانت تداهمنا تلك العقوبة المؤذية عندما يأمر الشرطي الأخ المعاقب بخلع ثيابه والانبطاح في أرض المهجع، ثم يُؤمر رئيس المهجع بإحضار ابرة وتشريط ظهره بكل قسوةٍ حتى يمتلئ بالدم، ولا يكتفِ بذلك فيؤمر بتدليك هذا الظهر المشرّط بالملح ودلكه بشكل عنيف حتى يُلهب ظهر ذاك الأخ، بينما هو يتلوّى ويستغيث تحت يدي ذاك الأخ الآخر (رئيس المهجع) دون أن يستطيع التخفيف أو أن يرد الظلم عنه؛ صحيحٌ أنّ العقوبة صعبةٌ

فعلاً، لكن الأصعب منها أن ينفذها أخٌ له بيده وغصباً عنه، ولك أن تتخيل الألم الذي يشعر به فضلاً عن الألم الذي ألمّ بهذا المسكين الذي بين يديه، ولا ينتهِ المشوار عند ذلك بل يؤمر أن يأتي بشيء من الثوم ويسحقه ثم يدلك به ظهر الأخ المسكين الذي أُلهب ظهره بالسياط ثم بالتشريط ثم بالملح ثم بالثوم، فتخيل بعد هذه العقوبة كيف سيكون ظهر هذا الأخ.... بينما بقية أفراد المهجع منكسي رؤوسهم بالأرض يلجؤون الى الله ويجأرون اليه بالدعاء عسى أن يخفف عن أخيهم ما نزل به من ظلم ذاك الجبار.

ومن العقوبات التي كان الشرطة يستعملونها داخل المهجع والتي لا أزال أتذكرها ذاك الأخ المسكين الذي أمره الشرطي أن ينام وسط المهجع (وكان ذلك في شهر أيلول شديد الحرارة الذي كثيراً ما كنا نعاني فيه من الاختناقات) فقد أمره بالنوم وأمر بتغطيته بعشرات البطانيات التي ستغمره بالكامل وتجعله يغرق في عرقه، وقد يبقى على هذه الحالة ساعتين أو حتى تنتهي نوبته.

وأما عن تلك العقوبة التي كثيرا ما كانوا يستخدمونها ليلاً وهي أن يصبّوا الماء على الأخ الذي تقرّر عقوبته، وهو باقٍ في ثيابه وعليه بطانيته التي ستمتليء بالماء أيضاً، ويبقى على هذه الحالة حتى الصباح.

وأذكر ذاك الأخ الطبيب الذي وقع فريسةً بين يدي أحد الزبانية فكانت عقوبته مخفضةً، وهي أن أمره بإحضار بصلةٍ كبيرةٍ ذات اللون الازرق وأكلها خلال ثواني، وبدأ ذلك المسكين بقضم تلك البصلة بصعوبةٍ ومرارةٍ، إذ لا بدّ من تنفيذ الأمر، ورأينا الدموع تندلق من أنفه وعينيه بشكلٍ كبيرٍ دون أن يجرؤ على التوقف أو المخالفة.

وهناك أخ كانت عقوبته أن يمدّ لسانه خارج فمه وهو مغمضُ العنين ورافعاً رأسه هذه المرّة ويداه وراء ظهره، وهو يتجهّز ويتوقع أنّ الشرطيّ سيُطعمه شيئاً أو أن يضع له شيئا في فمه، إلا أنّه سرعان ما يُفاجأ بأنّ كرباجاً نزل على لسانه فكاد يخرجه من مكانه!

ومن العقوبات الأخرى أن يُضبّ الناس في زاوية المهجع ويُكدّسوا فوق بعضهم البعض، والحالة الصعبة التي ستلحق بالمساكين الذين يكون مكانهم في الأسفل وإخوانهم منبطحون فوقهم وهم يستغيثون من هذه الحالة.

وأرى من المهم أن أذكر عقوبةً مقززةً جداً لا بدّ من تنفيذها حتى لا تتطور الأمور الى عقوبةٍ أشدّ منها، وهي أن يبصق الشرطي أو أن يمتخّط في أرض المهجع ثم يأمر الأخ بلحسها بلسانه!

دروس في التضحية

إنّ ما وجدناه وما تعلّمناه وما رأيناه بأمّ أعيننا وعشناه حياةً عمليةً كان مثالاً حياً يبعث الأمل في نفوس الأمة كي تعيد مجدها المسلوب بما اكتسب شبابها من أخلاقٍ فاضلةٍ لكل معاني التضحية والفداء، تجسدت في الوقت الذي لو أراد الفرد أن ينأى بنفسه جانباً ويقول نفسي.... نفسي... لوجد الآخرون له عذراً، لما في هذه المواقف من صعوبةٍ ومشقةٍ مرهقتين، دونما أن يكون الأخ معنياً بشيء من ذلك، إنما يدفعه لذلك إيمانه وعقيدته التي اكتسبها من خضم الواقع المرير لأن يقدّم نفسه فداءً عن أخيه المريض الذي لا يقدر على مواجهة العدو، أو عن كبير سنٍ لا يحترمه الأعداء فيوجعونه ضرباً وقتلاً وإهانةً، أو عن صاحب عذرٍ قد يؤدي خروجه للعقوبة إلى الموت والهلاك، فترى الكثير من الشباب في هذه الحالات الصعبة وتلك الظروف العصيبة يتسابقون فداءً وتضحيةً عن إخوانهم لا يخافون ولا يهابون هؤلاء المجرمين، مع علمهم واعتقادهم أنّ تصرفهم هذا مع إخوانهم قد تكون عاقبته الموت أو التشويه، إلا أنّ إيمانهم القوي ما كان ليصدّهم عما أقدموا عليه من التضحية والفداء مرّاتٍ ومرّاتٍ بدون كللٍ ولا ملل.

كما كان أؤلئك الذين لا يستطيعون تقديم هذا النوع من الفداء ترى واحدهم يحمل ما جاءه من طعامٍ (على الرغم من قلته وكميته التي لا تسدّ رمق طفلٍ صغيرٍ) يدور به على مريضٍ يحتاجه ليتجاوز محنة مرضه إلى شطّ العافية والسلامة، فترى التجسيد العملي لحالة الصحابة الكرام الذين علّمونا نهج الحبيب المصطفى حينما أخبرنا بقوله تعالى (ويؤْثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يُوقَ شُحَّ نفسه فأؤلئك هم المفلحون).

كما كان من مظاهر الأخلاق الفاضلة التي كنا نعيشها ونتخلق بها أن نعفي إخواننا المرضى وكبار السن والعلماء الأفاضل من أعمال المهجع الداخلية والخارجية من سخرةٍ وغيرها، مما يتطلب منه مسؤوليةً احتراماً وإكباراً وإجلالاً، في الوقت الذي يتدافع هؤلاء على

ذلك لكنهم لن يجدوا إلى ذلك سبيلاً، فالشباب يأبون إلا أن يكونوا هم من يخدم ويقدّم ويضحّي كي ينال الأجر والثواب، إيماناً منه بالأجر والمثوبة من الله تعالى.

كثيرةٌ هي المواقف التي تنحني أمامها الهامات وتُطأطئ لها الرؤوس إجلالاً وإكباراً واحتراماً، لتزرع الأمل في نفوسنا وتبث الروح في قلوبنا، في الوقت الذي يندهش فيه الظلمة من تلك المواقف البطولية التي يرونها أمام أعينهم والتي يمارسونها بأيديهم على هؤلاء الابطال.

إنه الايمان الذي إذا ما تمكن من قلب صاحبه جعل منه بطلاً قوياً شجاعاً ثابتاً كريماً مضحياً.

الإعدامات

وهذه المحطة لم نكن نحسب لها حساباً أبداً، وما كنا نظن أنّ أحداً يقدم على تصفية خصمه بهذه الطريقة الوحشية، حيث كنا نظن أنهم سيكتفون بالتشفي منا بهذا العذاب الدائم والمتنوع، أما أن تُنصب المشانق أمامنا ويُعلّق الناس بهذه الطريقة البشعة التي لا يمكن لأحد عنده شيئ من الإنسانية أن يتقبلها فما كنا نتوقع ذلك أبداً.

ففي صبيحة يومٍ تعيسٍ استيقظنا على أصوات ضوضاء وضجيجٍ غريبٍ ومعها أصوات خشبٍ ترتطم بالأرض وهو أمرٌ مريبٌ بالنسبة الينا، وما هي إلا برهةً من الزمن حتى أُمرنا من قبل الحرس أن نُحشر في زاوية المهجع جالسين ووجوهنا إلى الحائط، لكننا لم ندرِ ما الأمر إلا بعد دقائق حيث سمعنا التكبيرات تعلو في سماء الباحة، كلٌ بدوره نسمعه لقربنا منهم، وقد تأكدنا من ذلك بعد أن نجح أحد الشباب في أن يتسلّل إلى شقّ الباب، فنظر وإذا بالمشانق قد ملأت الباحة والإخوة معلقين عليها، وهنا تغّير الحال بشكلٍ كبيرٍ، فالمرحلة يبدو أنها تصفيةٌ حقيقيةٌ فعلاً، وأنه تطبيقٌ لقرار ٤٩ الذي يقضي بالإعدام لمن ينتمي إلى تنظيم الإخوان المسلمين، فضلاً عن أنه سيشمل الجميع الذين سيُقدمون إلى المحكمة في هذه الفترات، لكن الأمر لم يتضح لنا حتى ذلك الوقت بشكلٍ واضحٍ وجليّ حتى انتهوا من جريمتهم التي قاموا بها وأعدموا أكثر من خمسين أخاً خلال ساعتين من الزمن.

وهكذا ومع الأيام استطعنا أن نعرف كيف تتمّ العملية وخاصةً عندما زادت وكثرت أعداد الإخوة الذين سيُنفّذ بهم حكم الاعدام، ففي الصباح الباكر يُنادى بالأسماء من على الأبواب بعد أن يوقظونا بشكلٍ مرعبٍ، فمن سمع اسمه عليه أن يجهّز نفسه إلى المصير المحتوم بعد دقائق، فيسارع للوضوء وصلاة ركعتي الشهادة، ثم ينزع ثيابه ليستفيد منها أخوته من بعده، ويلبس من الثياب البالية، ثم يقف أمامنا ليشدّ من عزيمتنا ويقوّي من إيماننا وكأنه شخصٌ آخر غير الذي نعرفه من قبل، فسبحان الله القائل (يُثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة)، ثم يُفتح الباب بعد هذا الموقف الرهيب والمهيب ليخرج

الأخ رافعاً رأسه متماسكاً موقناً راضياً بقضاء ربه فرحاً باصطفاء الله له من بين إخوانه، مستبشراً بمنزلته ومقامه وكأنه ينظر الى مقامه في الجنة يريد المسارعة إليه، مما يجعلنا نستشعر حالهم كحال من قال الله فيهم: (رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا).

وما أن يخرج الإخوة من المهجع حتى يؤخذ كلّ واحدٍ منهم وحده فتُعصب عيناه وتُكبّل يداه الى الوراء ويقاد الى مهجع الورشة، والذي أُعدّ لتجميع الشباب قبل إعدامهم في الباحة السادسة، وهي أكبر الباحات حيث يتمّ فيها تنفيذ حكم الاعدام.

وما أن يكتمل تجميع الشباب في الورشة حتى تكون مراسم نصب المشانق جاهزةً في الباحة من قبل الشرطة والبلديات، ثم يدخل عليهم رئيس الزبانية مدير السجن آنذاك المقدم فيصل غانم، ومعه سليمان الخطيب رئيس المحكمة الميدانية في سوريا، والذي يتلو عليهم حكم الإعدام وفق قرار قانون ٤٩ ويشرفان بنفسيهما على ذلك، ثم يبدأ الزبانية بإخراج الشباب إلى حبال المشانق فرداً فرداً لنسمع أصوات التكبير والتهليل تدوّي في سماء الباحة دوّياً وكأننا معهم حيث كنّا في مهجعٍ رقمه ٢٦ لا يفصل بيننا وبينهم إلا جدار من الإسمنت.

وما أن تعلو أصوات التكبير وتنتهي حتى يخيّم الهدوء في الباحة ثم يتم إنزالهم عن الحبال بعد التأكد من إتمام عملية الاعدام، وذلك بشدّهم من أجسامهم الى الأسفل وهم معلقون، ثم يرمونهم على الأرض ويسحبونهم إلى مكان يجمعونهم فيه حتى تأتي شاحنةٌ عسكريةٌ ليُحمّلوا فيها وينقلوا إلى مكانٍ في دهاليز الصحراء لا يعلمه إلا الله!

وإن نسيت فلن أنسى ذلك المنظر عندما نظرت مرّةً من شراقة الباب وإذا بالمشانق منصوبةٌ في الباحة وقد ملأتها أجساد الإخوة الأبطال معلقة عليها وهم يشدّونها إلى الأسفل بأيديهم ليتأكّدوا من إتمام إعدامهم وخروج أرواحهم، يصحبهم طبيبٍ جزّارٍ معهم اسمه محمد يونس العلي من صافيتا بمحافظة طرطوس.

وبعد أن يُسقطوهم على الأرض ويسحبونهم إلى مكانٍ يجمعونهم فيه رأيتهم بأمّ عيني يرقصون ويدبكون على أجسادهم بكلّ فرحةٍ وسرورٍ، بل من شدة حقدهم لم يكتفوا بضربهم وهم أحياءٌ فكانوا يضربونهم بالكرابيج وهم أمواتٌ!! وبعد أن شبعوا من ضربهم والرقص على أجسادهم فتح الباب الخارجي للباحة لتدخل شاحنةٌ عسكريةٌ كبيرة ليُحملوا فيها بطريقةٍ وحشيةٍ لا يمكن تصوّرها، حيث يُمسك شرطيّ بيدي الأخ المعدوم ويُمسك شرطيٌ آخر بيديه ثم يلوّحونه كما يلوّح كيس الإسمنت ويلقونه بكلّ قوةٍ وقسوةٍ ليسمع صوت اصطدام جسمه بأرضية السيارة أكثر أهل الباحة.

يحدث هذا كله بينما نحن في المهجع خائفين هلعين وقد انكمشنا على بعضنا في زاويةٍ من زواياه دون حركةٍ ولا كلمةٍ حتى ولا همسةٍ، فالوحشة والكآبة تحيط بنا من كل جانب وكأنّ على رؤسنا الطير!

من الأمور التي ينبغي لفت النظر إليها أنّ المحاكم والإعداماتِ لم يكن لها وقتٌ محددٌ، كما أنّها تتكثّف مع الأحداث الخارجية في البلد، ففي الفترة الأولى من السجن ١٩٨٠ اعتدنا على تنفيذها في كل أسبوعين مرّة واحدة، أما في سنة ١٩٨٢ . أي عند أحداث حماة . فقد ازدادت بشكلٍ كبيرٍ فأصبحت تُقام حفلات الإعدام مرّتين أو ثلاث مرّات في الأسبوع، كما تزايدت أعداد الأخوة الذين سيُقدمون للإعدام لتبدأ بالخمسين وقد تنتهي بالمئات، كما كان بتاريخ ١٩٨٤/٥/٢٣ حيث تمّ اعدام ٣٩٠ شخصاً لم تتسع الورشة لتجميعهم فتمّ تفريغ مهجعٍ كبيرٍ هو ٣٢، وهكذا كان معدّل الاعدامات بشكلٍ وسطيّ في كلّ أسبوعٍ وعلى مدار ١٢ سنة حتى عام ١٩٩٢ بمعدل ٢٠٠ شخص شهرياً، ليكون عدد من تمّت تصفيتهم في سجن تدمر ما يقارب ٢٥ ألف شخص، وفي الوقت نفسه كانوا يزجّون بالناس من الفروع الأمنية إلى سجن تدمر، وهذا ما صرّح لنا به أخٌ كان محققاً في محافظة إدلب، وكيف جاءته الأوامر بإلصاق التهم بالناس وإرسالهم إلى تدمر مباشرةً، إلا أنه لم ينجُ منهم

لتساهله مع المعتقلين، فكان نصيبه أن زجّ به في السجن معنا ليقضي حكماً بالسجن لعشر سنوات!

فإذا ما تمّ تنفيذ الإعدام اليوم فاعلم أنّ هناك دفعةً جديدةً قادمةً غداً من الفروع إلى السجن سوف نسمع أصوات استقبالهم تدوّي في سماء الباحات بشكلٍ فظيعٍ، وربّما مات الكثير منهم تحت التعذيب، وهكذا كنّا ما بين استقبال لإخوةٍ جدد وما بين تصفية لإخوةٍ تمّت محاكمتهم ليلاقوا حتفهم على أعواد المشانق.

وما أن تنتهي تلك الجريمة حتى يعود كلّ منّا إلى مكانه مصدوماً واجماً لا تكاد الكلمة تخرج من فمه من هول ما حدث وبشاعة ما أصابنا، إلا أنّ السؤال الذي سيسأله كل منا لنفسه الآن: متى سيكون دوري لأعلّق على حبال المشانق؟ لأنّ الأمر جدّيٌ وعصيب، ويبدو أنّ قرار ٤٩ القاضي بإعدام كل من انضمّ إلى تنظيم الإخوان المسلمين سيُنفّذ بشكلٍ حرفيّ، وبالتالي فكلّ من تعرّض للمحكمة في هذه الفترات سيكون مآله الإعدام المحتّم، بينما تذهب التحليلات بين الشباب داخل المهجع إلى أنّ الإعدام سيطال من قام بعملٍ مسلّحٍ، وقال آخرون غير ذلك، وهكذا كلٌ يحلّل كما يرى ويذهب إليه تفكيره، إلا أنّ الإخوة المثقفين فينا كانوا يزرعون الطمأنينة في قلوبنا وأننا لن نموت إلا بآجالنا، ولن تموت نفسٌ حتى تستوفي حقّها من كلّ شيءٍ كتبه الله لها، فكم من أخٍ حُكِم بالإعدام كان قد مات بمرضٍ عادي أو نوبةٍ قلبيةٍ قبل أن نسمع اسمه مع إخوانه إلى الإعدام، وكم من أخٍ بريءٍ ليس عليه شيءٌ في تحقيقاته مات تحت التعذيب في باحات السجون.

وهكذا عاد اليقين إلى قلوبنا نحن الصغار آنذاك، وكان يشحذ من إيماننا ويقوّي من عزيمتنا أننا لم نُسجن ولم نُعذَّب ولم نُعدم إلا لأننا مسلمون وقد جئنا في سبيل الله، ومن كان همّه وعمله ونيته في سبيل الله كان الله معه، ومن كان الله معه فلا ينبغي أن يخاف أو يحزن أو يضعف أمام أولئك الصعاليك؛ وهذا ما كنا نراه من الشباب الذين كانوا يخرجون أمامنا الى الإعدام وكأنهم يرون مقاعدهم في الجنة، فكان همّهم الأول الوضوء وصلاة ركعتي

الشهادة، والوقوف أمامنا ليلقي فينا نصيحةً تشدّ من هممنا، بل وكثيراً ما كان يقصّ علينا حلمه الذي رآه بأنه يطير في السماء أو أنه على موعدٍ على الفطور مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو أنه يتلو قوله تعالى (وسارعوا إلى مغفرةٍ من ربكم وجنةٍ عرضها السموات والأرض أعدّت للمتقين)، كما حدث مع الأخ الشهيد الحمصي بسام كالو على ما أتذكّر؛ كما الشهيد عبد الغني الدباغ الذي نادانا عندما جئنا نودعه فقال مبتسماً: "اليوم ألقى الأحبة، محمداً وصحبه"؛ وأمّا الشهيد طريف حداد فكان عندما سمع اسمه إلى الاعدام وكأنه في يوم زفافه من فرحته، وعندما دمعت عينا أخيه قليلاً على فراقه ما كان جوابه إلا أن قال له: "أتبكي عليّ يا أخي؟ بل ابكِ على نفسك فأنا ضيف الله اليوم"!

ومثله ذاك الشيخ الكبير الوقور محمد غرير وهو في السبعين من العمر آنذاك، وقد خُطف ابنه أحمد من بين يديه ليعانقه بكل قبولٍ ورضاءٍ، مستسلمين لأمر الله راضين بقضائه مطمئنين لحكمه، راجياً ربه قبول ولده البارّ؛ إلا أنّ الموقف المؤثر كان عندما جئنا نعزيه بابنه وجدناه يواسي الأخ الصغير للشهيد طريف، فأبى علينا تعزيته وطلب منا تهنئته بابنه الذي اصطفاه الله إليه شهيداً.

وهكذا العشرات بل والمئات من المواقف التي كانت تبعث في نفوسنا الأمل وتحيي في قلوبنا الروح والحياة. تلك هي المواقف التي كانت تشدّ من عزائمنا وتقوّي من هممنا وتضاعف من إيماننا على متابعة مسيرتنا اليومية بكلّ شجاعةٍ وعزيمةٍ وثبات.

إلاّ أنّه من الصعب أن ننسى أؤلئك الشباب الأبطال أو ننسى تلك الأيام التي عشناها معاً، أو تلك الجلسات التي جلسناها سوياً ونحن نتلقّى الدروس، أو تلك المواقف البطولية من الفداء والتضحية أمام إخوانهم، والتي لا يستطيع وقوفها إلا رجلٌ يملك من الإيمان ما يعانق السماء.

ثم بعد ذلك كله بدا أنّ الأمر لم ينته وأنّ له ملحقاتٌ تتبعه، إذ أنّ قوائم جديدةً تخرج إلينا وفيها مئاتٌ من الأسماء أُخرجوا إلى الباحة الاولى بشكلٍ فظيعٍ محاطين بقطعان الشرطة المدجّجة بالكرابيج التي تلاحقهم خطوةً خطوةً، وهم لا يدرون الى أين المسير؛ إلا أّنهم وبعد رحلةٍ صعبةٍ ومُشقةٍ تحت حراب السياط وجدوا أنفسهم في باحةٍ معبأةٍ بالشرطة والبلديات، حيث أجلسوهم على الأرض مغمضي الأعين ومنكسي الرؤوس وأيديهم وراء ظهورهم، والزبانية تحوم عليهم بالسياط والركلات والرفسات بضربٍ مخيفٍ ومرعبٍ دون أن يعرف أحد عن الأمر شيئاً.

إلاّ أنّ الأمر سرعان ما يتوضّح وينجلي عندما يسمع كلّ واحدٍ اسمه ليُساق بين شرطيين إلى غرفةٍ جلس فيها رجلٌ قصير القامة واضح الشاربين تبدو الظلمة والقساوة على قسمات وجهه، وخاصةً إذا نظر إليه أحدٌ فإنه سينال النصيب الوافي من الضرب والعذاب؛ إنّه اللواء سليمان الخطيب رئيس المحكمة الميدانية جاء ليبلّغ الأحكام لأصحابها في محكمةٍ هزليةٍ تحت ظلّ السياط والرفسات والركلات، حيث يتمّ استدعاء ما بين ٢٠٠-٣٠٠ أخ سيتم تقديمهم إليه خلال ثلاث ساعاتٍ، وتكون طريقة الاستدعاء بأن يسأل الأخ قائلاً: ما اسمك؟ وما اسم أمك؟ وما اسم ابيك؟ وهل فعلت كذا أو كذا..... وتكون الكرابيج فوق رأسه.... ثم يتابع قائلاً: إعدام.... ابصم هنا يا..... وهكذا يُمضي الإخوة يومهم بين حاملي السياط وبين جزّار متكبّر يبشّرهم بالإعدام ويوميء للزبانية أن يتوصّوا بهم فيسومونهم سوء العذاب، وينزلون بهم من العذاب والضرب والإهانة ما يُنهك قواهم وأجسامهم، ثم يعودون وقد بشّرهم بحكم الإعدام الذي يتطلب من كل من تسلّم هذا الحكم أن يجهّز نفسه في أيّ وقت؛ وهكذا اعتدنا على التأقلم مع هذا النوع من العذاب النفسي والجسدي، ولذلك ما أن نرجع من المحاكمة أو من التنفس أو من التفقد حتى نعود إلى كتاب الله لنشرح به صدورنا ونكمّل به إيماننا مغتنمين الفرص لحفظ آياته وتدبّر معانيه والعيش في رحابه، فأخذنا بالتسارع والمسارعة والتنافس في حفظه ودراسته وتعلّم أحكامه وعلومه؛ ولم يكن قد اكتمل المصحف عندنا آنذاك حتى أتتنا دفعةٌ جديدةٌ من الإخوة

الدمشقيين وكانوا من جماعة مسجد زيد بن ثابت الذي يُخرّج حفظةً للقرآن الكريم، وكان نصيبنا منهم الأخ الشهيد محمد صنوبر رحمه الله الذي كان له الفضل في إكماله لنا وتصحيح ما كان عندنا من أخطاء.

وهكذا أخذ التنافس بيننا يزداد يوماً بعد يومٍ حتى استطاع عدد منا حفظه غيباً في عام ١٩٨٢ وكنت منهم والحمد لله.

كما لم يقتصر العلم وتلقيه في السجن على القرآن الكريم وعلومه فحسب، بل شمل كل علمٍ موجود عندنا، فكان كلّ أخٍ يملك علماً يجود به على من يريد، حتى أصبح السجن وكأنه جامعةٌ تجمع علوماً شتّى، فضلاً على الإبداع الذي تلاحظه عند هؤلاء النخبة من المجتمع السوري، والذين استطاعوا أن يتكيّفوا مع جوٍّ ليس فيه شيءٌ من مقوّمات الحياة، بل ويحوّلونه إلى جوّ مريحٍ تسود فيه الأخوّة والمحبة والألفة، كما تلاحظ إبداعاتهم التي تظهر بشكلٍ واضحٍ وجليٍ من أكياس النايلون التي تعتبر المادة الخام الرئيسية لصنع أيّ شيءٍ تريده، حيث يتمّ تحويل الكيس إلى خيطانٍ للخياطة بابرةٍ صُنعت من العظام التي تأتينا بدلاً عن اللحم، وبالتالي أصبحت قضيّة الخياطة محلولةً؛ كما كنا نصنع من الخيطان سلات من أجل أن يضع الأخ أمتعته الخاصة، كما تمّ صنع الرفوف على طول جدران المهجع ليضع كل واحد منا أمتعته بشكل حضاري وكأنك تصعد الى بولمانٍ مجهّزٍ برفوفٍ جانبية للأمتعة! كما تمّ صنع الأحذية والقمصان والدروع التي تُلبس تحت الثياب لتقي صاحبها من شدّة الضربات التي تنهال عليه؛ وكذلك صنعنا الملاعق الضرورية للطعام حيث تُرسم الملعقة على جاط البلاستيك ثم يتم قصها بالخيط بشكلٍ دقيقٍ لأنه الوسيلة الوحيدة المتاحة لذلك، فتبدو وكأنها خرجت من مصنعٍ عالي الدقة!

ضيوف ثقلاء

على الرغم من صعوبة الحياة اليومية في السجن الذي لا يمكن أن يدخله أحدٌ غير من جاءه معتقلاً مثلنا، إلا أننا كنّا على استعدادٍ دائمٍ لاستقبال الضيوف أياً كانوا ومن أيّ مكان جاؤوا، لكنّ نصيبنا من الضيوف كان من نوعٍ آخر: ضيوف ثقلاء ولا حيلة لنا في الهروب منهم أو رفضهم، كما لا مفرّ من ملاقاتهم واستقبالهم، ففي كل عامٍ كان حقاً علينا أن نستقبل ضيفاً من هؤلاء الضيوف على مّر السنين، والذين تمثّلوا في "الكوليرا" والجرب والقمل والحمى والسلّ و.....

"الكوليرا"

كان أول الضيوف الذي أطل علينا فجأة دون إذنٍ أو دستورٍ، وكان ذلك عام ١٩٨١ حيث ظهر الإسهال الشديد الذي رافقه إقياءٌ مستمرٌ، والذي كان إذا ما ابتدأ في الصباح أحال صاحبه خلال ٢٤ساعة إلى جثةٍ هامدةٍ، وهذا ما أخاف الزبانية في السجن خوفاً من انتقال المرض إليهم لا حرصاً علينا بالتأكيد، فسارعوا إلى جمع الذين أُصيبوا بهذا المرض في مهجعٍ واحدٍ كان رقمه ١٣ ليتلقوا العلاج البسيط والذي لم يكن يغني عنهم شيئاً، إلا أنّ رحمة الله كانت تلفّهم وتحيط بهم حيث شُفي منهم الكثير وفارق الحياة منهم عددٌ ليس بالقليل، إلا أنّ ذلك كان له أثرٌ كبيرٌ وجيدٌ على المعاملة معنا حيث قلّل من احتكاك الزبانية فينا.

الجَرَب

وكان ذلك في عام ١٩٨٢ حيث لم نكن نعاني من قلة الطعام وكثرة العذاب والضرب فحسب، بل اجتمعت علينا في تلك الفترة الكثير من المصائب، حتى الماء أصبحنا نتوق ونتشوق إليه لحاجتنا الماسة له، حيث قُطع الماء عنا لأكثر من شهرٍ حتى اضطررنا لتقاسمه بالكاسة، لأنّ نصيب المهجع من الماء عدّة بيدونات في اليوم والليلة، وهذا يستدعي التقنين في استعماله، فكنّا نوزّع كاسةً صغيرةً للشخص عند نومه وكاسةً للاستخدام الخاص في التواليت، وما يعادل لتراً واحداً لأجل حمّام الجنابة، وهذا ما جعل حالتنا في السجن صعبةً ومزريةً، حيث انتشرت الروائح الكريهة والقذارة التي لا يمكن لنا التخلص منها، والتي كانت سبباً مباشراً في دخول ضيفٍ جديدٍ علينا أوسع انتشاراً وأكثر انتهاكاً لأجسادنا.

إنّه الجرب الذي تسلّل ونجح في التسلّل بشكلٍ سريعٍ لوجود الجوّ الملائم والمائدة المليئة بكلِ ما يطلب وما يريد! وبدأت الحكّة في الانتشار بأجساد الشباب، وسرعان ما تحولت إلى تقرحات تعمّ الجسد كله دون أن توفر جزءاً منه وتملأه بالقيح والدمامل، وتزيد من محنته شدةً وقساوةً إضافتين، فقد كان معنا من الإخوة الذين أصيبوا إصاباتٍ بالغةً ذاقوا فيها من البلاء ما ذاقوا، والذي كان يتطلّب تغير الملابس التي لم تكن متوفرةً بالشكل الكافي أصلاً، وذلك لما يصيبها من القيح والدماء التي تخرج من دمامل جسد المصاب.

إلا أنّ انتشار الجرب بهذا الشكل في السجن أخاف إدارة السجن والشرطة من أن تنتقل العدوى إليهم، فأوكلوا مهمة علاجه والقضاء عليه للأطباء الموجودين في كل مهجعٍ، وذلك بإمدادهم ببعض المراهم التي لا تغني عن الشفاء شيئاً، إلا أنها كانت سبباً للشفاء بإذن الله، غير أنّ الحصول عليها كان نوعاً آخر من العذاب، لأنهم كانوا يقطّرونها الينا بالقطارة، وبشرطٍ آخر هو أشد وأنكى من أيّ علاجٍ، إذ لا بدّ لك حتى تدهن للجرب من أن تخرج

للحمّام بالشورت وبرفقة هؤلاء الزبانية تحت ظلّ الكرابيج والسياط، وهذا ما كان يمنع الكثيرين ممن أصيبوا من الخروج لعلاج جربهم.

وذات مرّة جاء طبيب السجن ومعه الزبانية إلى المهجع الذي بجانبنا وكنا نسمع ما يحدث لهم تماماً، حيث أخرجوا من كان مصاباً بالجرب إلى الباحة بعد أن أمروهم بخلع الثياب وذهبوا بهم الى الحمّام ثم عادوا بهم الى مهجعهم، وقد دهنوا أجسامهم بالمراهم دون أن يمسهم أحدٌ بأذىً أو بأيّ كلمةٍ بذيئةٍ نسمعها، وهذا ما شجع أن يخرج منا عدد كبير حتى يُتاح له العلاج، إلا أنهم ذهبوا ولم يأتوا إلينا يومها، وفي اليوم الثاني وعند الساعة العاشرة صباحاً جاء الزبانية وسألوا رئيس المهجع....كم مصابٌ عندك بالجرب؟.....أربعون... بالشورت والى الباحة.....

فخرج أكثر من ثمانين شخصاً ظناً منهم أنّ الأمر اليوم كما كان مع إخوانهم البارحة، إلا أنّ الأمر بدا على العكس تمامًا، فقد قال زعيمهم: يا رئيس المهجع...كيف تقول أنّ عدد المصابين عندك أربعين فقط وقد خرج كل هذا العدد؟ يبدوأنكم تضحكون علينا.... إلا أنّ رئيس المهجع لم يستطع إجابتهم بشكلٍ مقنعٍ فالأمر خرج عن سيطرته.

عندها توجّه زعيم الزبانية الى من في الباحة قائلاً لهم: من كان منكم مصاباً بالجرب فليقف الى هذا الجانب.....فيصطف الجميع.... ثم يعود ويكرّر ثانيةً... من كان مصاباً بالجرب فليقف جانباً...فيصطف الجميع وهكذا ثالثةً ورابعةً...

فما كان منه إلا أن توجّه إلى رئيس المهجع وقال له: لقد عذبتمونا فسوف نعذبكم....الجميع بالشورت وإلى الباحة خلال عشر ثواني؛ وبالفعل فقد أخرجونا إلى الباحة واصطففنا اثنين اثنين عراةً لا نملك إلا الدعاء والتضرّع إلى الله، لأنّ ما ينتظرنا يبدو أنه صعبٌ ومرهقٌ، وما أن اكتمل اصطفافنا حتى أخذنا نسمع أصوات ارتطام أدوات الضرب والتعذيب بالأرض، من كرابيج وخشبٍ وحديدٍ، وحتى الآن لم ندرِ ما الذي سيحدث معنا،

حتى أُمرنا بالجلوس كجلسة السجود وأيدينا وراء ظهورنا، وكنا حوالي ٢٠٠ شخص، وما هي إلا دقائق قليلةٌ حتى أخذت تهوي علينا السياط والكرابيج وقضبان الحديد وجذوع الأشجار والأنابيب الحديدية بكلّ وحشيةٍ وقسوةٍ، وكأنهم يريدون التصفية الحقيقية للناس تحت التعذيب، فلا يمكن التصديق بحياة من سيخرج من تحت هذه الأنواع حياً!

وهكذا امتزجت أصوات الصياح والعويل والصراخ بأصوات الكرابيج والصياح، وأخذت تعلو في سماء السجن حتى أظنها قد أسمعت معظم ساكني مدينة تدمر، وبقينا على هذه الحالة حوالي ثلث الساعة حتى تشققت الظهور وأُنهكت الأجساد وتشتّت القلوب، عندها جاءنا الأمر بالدخول إلى المهجع الذي لا يبعد عنّا أكثر من عشرة أمتارٍ، لكنّك ستمرّ إلى مهجعك بين الشرطة الذين وقفوا على الجانبين، حتى إذا ما نجى أحدنا من كرباج شوطي طاله الآخر بكرباجه أو عصاه التي يحملها بكلتا يديه!

ولا زلت أذكر يومها حين كان يدخل كلٌ منّا إلى المهجع فينظر إلى ظهر زميله الذي دخل أمامه واتجه بوجهه إلى الحائط ريثما يدخل بقية زملائه ويُغلق الباب، فكانت ظهور كل أفراد المهجع قد أصبحت سوداء كالباذنجان، والدم يسيل منها نتيجة الضربات من قضبان الحديد والانابيب التي فيها نتوءات دقيقة؛ فكان كل واحدٍ منّا ينظر إلى من هو أمامه ويواسيه ويخفف عنه على أنه قد أُصيب بأذيةٍ عظيمةٍ، ناسياً أنّ ما أصابه في ظهره قد يكون أكثر منه لكن دون أن يشعر بذلك؛ وهذا ما حدث مع أخٍ لنا من بلدة سرمدا من قضاء ادلب قرب الحدود التركية واسمه "مضر كجّان"، والذي دخل من بين الشرطة مسرعاً، إلا أنّ تكالبهم عليه أفقده صوابه في الدخول، فضرب رأسه بزاوية الباب الحديدية التي شقّته من فورها دون أن يدري ماذا حدث معه، حتى إذا دخل ونظر إلى ظهر أحد زملائه وعبّر عن مواساته له والدماء التي تسيل من ظهره نظر إليه أخوه وقال له: أما نظرت إلى حالك فوجهك مليء بالدماء وقد غيّرت لون جسمك إلى الحمرة، وبالفعل اجتمعنا

عليه كلنا كي نوقف الدم الذي ينزف من وجهه الذي انشقّ لأكثر من ٦ سم، حيث كنت تستطيع أن ترى ما تحت عظم الجمجمة!

حقيقةً كان الموقف مرعباً رهيباً، إلا أنّ رحمة الله التي وسعت كل شيء وسعتنا ووسعت ذلك الأخ بما قُدّم له من الخِرَق التي وُضعت مع شيء من الدهن على مكان الإصابة، فكانت سبباً في معافاته من مصيبةٍ ألمّت به كادت أن تقتله.

وهكذا كانت مأساة الجرب كمأساة الكثير من الأمراض التي تحلّ علينا بين الفينة والأخرى، ولم نتخلّص من هذا الداء حتى هتك بأجسامنا وأقضّ مضاجعنا ومهّد لمجيء ضيفٍ آخر نزيلاً ثقيلاً علينا.

القمل

وأمّا هذا الضيف فلم يكن أقلّ سوءاً وثقلاً من غيره وخاصةً أنّ الجوّ والمكان مناسبان لاستضافته، حيث تسلّل إلينا بعد رحيل الجرب عن أبداننا ليحلّ محله وينزل مكانه هذا المُضاف الجديد، فانتشر بشكلٍ كبيرٍ وتمكّن من تغطية السجن بأكمله، ولا أظن أنّ أحداً منا لم يعشعش القمل في بدنه وملابسه وتغذى من دمه وجسده، ولهذا كنا نجتهد في التخلّص منه والتحايل عليه يومياً وبشكل جماعي، حيث كنّا نجلس بعد دخولنا من التفقد فنخلع ثيابنا ويبدأ كلٌ منّا بتفليتها وقتل ما بها من قمل، وكان ذلك بشكلٍ دوريٍ ومتكررٍ حتى استطعنا التخفيف منه بشكلٍ كبيرٍ، إلا أننا لم نفلح في استئصاله والتغلب عليه إلا بعد عامٍ مريرٍ من الهتك بأجسامنا والعبث برؤوسنا ليرحل عنا إلى غير رجعة....بل ليخلّف غيره فينا ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم!

هدنة مؤقتة

في مرحلةٍ ما من السجن كانت عام ١٩٨٣ م بدأ شيءٌ من الانفراج في المعاملة نوعاً ما، وأخذت التحليلات تروح وتجيء بنا يمنةً ويسرةً ما بين متفائلٍ ومتشائمٍ، إلا أنّ كلّ ذلك لم يحدث، حيث أنها كانت . كما تبيّن لنا فيما بعد . خطةً لاستنزاف الأموال واستجرارها من أيدي أهالي السجناء، وذلك عن طريق فتح "ندوةٍ" في السجن لبيع الشاي وبعض الخضروات والثياب المسروقة، وكان ذلك بالإتفاق ما بين مدير السجن آنذاك المقدم فيصل غانم، وعميله المساعد محمد خازم، وما بين سجينٍ كان في مهجعنا ٢٦ واسمه خالد عوض السالم من صوران قضاء مدينة حماة، ويُكنى بـ"أبي عوض"؛ وقد سبقت معرفتهم به أنه كان . كما عرفنا منه . سجيناً قضائياً بنفس السجن عام ١٩٧٤م أي قبل أحداث الثمانينات، ولم يكن أبو عوض ذي خلفيةٍ إسلاميةٍ أبداً، إلا أنهم لم يحترموه عندما وجد معنا، بل كان نصيبه من العذاب والضرب أكثر منّا بكثيرٍ، لأنّ جسمه كان ضخماً ومحطّ أنظار الشرطة لينالوا منه وينقضّوا عليه كلما لاحظوه في التنفس، حتى فُتح أمامه هذا الباب وتمّ الإتفاق معه للتعامل مع المساجين من جهة، ومع أمثاله من طرف الناس خارج السجن من جهةٍ ثانيةٍ، وذلك بفتح الزيارات أمام أهالي المعتقلين مقابل أموال تُدفع إلى مدير السجن، ومن ثم إذا ما جاؤوا وقابلوا أبناءهم وجلبوا لهم من الأموال والأغراض قام رئيس السجن بسرقة ٩٠ بالمئة منها، وتحويلها إلى الندوة ليقوم أبو عوض ببيعها للمساجين وبأسعارٍ باهظةٍ، لكنهم كانوا مضطرين لشرائها منه لحاجتهم إليها، علماً أنها لهم وأهلهم من أتى بها... لكنه الأمر الذي فُرض علينا.

ولم تكن هذه الطريقة الوحيدة لاستجرار الأموال وحسب، فقد بات متاحاً أنك إذا ما أردت كأساً من الشاي لك، أو أردت أن ترسلها إلى أخٍ لك في مهجعٍ آخر، ما عليك إلا أن تمدّ يدك إلى جيبك وتدفع ما يُطلب منك؛ وكذلك إن أردت إرسال بعض الأمتعة إلى غيرك في مهجعٍ آخر فلك ذلك مقابل الدفع؛ وهكذا يتم استنزاف الأموال بكل وسيلة، إلا أنّ الناس

كانت تبدي ارتياحا لذلك، حيث صار هذا الأمر سبباً مباشراً لرفع الضرب والقتل والتعذيب عنا بعض الشيء.

وأرى من العدل أن أذكر عن محاسن تلك الفترة والتي سميناها بالمرحلة الذهبية، حيث رُفع عنا جزء من الضرب والتعذيب، كما أصبح لك أن ترفع رأسك وتفتح عينيك في التنفس وأمام الشرطة، ويمكن لك أن تضحك إن دعتك الضرورة، وقد كان ذلك محرّماً عليك من قبل؛ كما تمّ التعرّف على أصحاب رؤوس الأموال وجمعهم بطريقةٍ غير مباشرةٍ في مهجع أبي عوض ليُسمّى بـ"مهجع المدعومين"، حيث أصبح يتوفر لهم أكثر ما يطلبون من متاع الحياة الدنيا؛ كما انعكس ذلك على معاملة السجن كله إضافةً إلى معرفة ما كان من أحوال إخواننا في بقية المهاجع ومعرفة كلّ واحدٍ منهم، ومعرفة من يخرج إلى الإعدام وعددهم في كل حفلةٍ تُنفّذ!

كما استطعنا في تلك المرحلة أن ننقل ما عندنا من علومٍ عامةٍ ألى المهاجع الأخرى ونأخذ ما عندهم من علومٍ، إضافةً إلى تصحيح الأخطاء التي ما زالت لم تُصحح عندنا من القرآن الكريم، سيّما أننا كنا نحفظه مشافهةً؛ كما صار بإمكاننا أن نتلقى الدروس المختلفة في شتى المجالات حتى أصبح السجن وكأنه جامعةٌ كاملة، لتخرّج من العلماء والحفاظ والمبدعين ما أدهش السجانين ومعلّميهم لما رأوا من إبداعاتهم التي تدل على تفوّقهم وذكائهم، لكن ذلك لم يزدهم بالنتيجة إلا حقداً علينا.

كما كان هذا الإنفراج الذي حلّ علينا سبباً في التضييق على الشرطة الذين أصبحوا يعضّون علينا الإنامل من الغيظ، وخاصةً من أبي عوض الذي أبدى لهم العداء المباشر والتحدي بأكثر من موقفٍ دون أن يحسب خطاً للرجعة التي لم تطل كثيراً، حيث حدث ما حدث بين أركان النظام الذي أطاح بإدارة السجن واستبدلها بإدارة جديدة تنتظر الانتقام على أحرّ من الجمر، حيث أخذوا يتفنّنون بالعذاب أكثر من قبل، فكان أضعافاً مضاعفةً ينال من كان له وضعٌ خاص، كما حدث لأبي عوض الذي أصبح معاقباً أبدياً (في مصطلح

السجن)، أي أنه أصبح مهدور الدم في أي وقتٍ، وأمام أيّ شرطي، حتى أُنهك جسمه وانهارت قواه ووصل إلى مرحلةٍ لا يطيق سماع صوت شرطي ولو من بعيد؛ وهكذا عاد وضع السجن إلى أنكى وأقسى وأصعب مما كان عليه من قبل، لتعود كثرة الضرب وقلة الطعام وكلّ ما ينغّص الحياة اليومية، ولتعود الأمراض التي كانت تنزل بنا بين الفينة والأخرى، وليكون نزيلاً عندنا في ذلك العام مرض "الحمّى المالطية".

الحمّى المالطية

شاء الله أن أكون في تلك المرحلة بمهجعٍ غير مهجعنا الذي أُخرجت منه مع أخٍ لي من قِبَلِ أبي عوض كما أُخرج الكثير من الشباب الطيبين الذين كانوا يعارضونه في أفكاره وسلوكه في المهجع، والذي بدا وكأنه يريد أن يجعله مزرعةً له يتصرف فيها كما يريد، فمن سكت فإنما يسكت خوفاً من شرّه، ومن تكلّم كان مآله النفي والطرد من المهجع إلى مهجعٍ آخر، فكان مآلنا إلى مهجع ٣٤ والمعروف بمهجع الحمويين، والذي كان يناله النصيب الأكبر من العذاب لأنّ أغلب ساكنيه من الإخوة الحمويين؛ وما مضى أكثر من شهرٍ على دخولنا ذلك المهجع حتى قدّر الله لي أن أكون رئيساً للمهجع وقائماً على تسيير أُموره الداخلية والخارجية مع إخوة يساعدونني في ذلك، عندها أصبحت أكثر احتكاكاً مع الشرطة الظالمة، يطالني الضرب والعذاب والقتل صباحاً ومساءً، بل وفي كل وقتٍ يُفتح فيه باب المهجع؛ لكنني صرت . من جهةٍ أ أكثر اتصالاً بأولئك الشباب الأبطال الذين يتدافعون لتحمّل الكرابيج فداءً وتضحيةً عن بقية إخوانهم في المهجع، حتى زرعوا في نفسي الشجاعة والاقدام وشدّوا من همتي وعزيمتي وأعطوني دفعا جديداً في متابعة تسيير أمور المهجع أكثر من سنةٍ ونصف متواصلة، لأقع بعدها طريح الفراش رهين المرض الجديد، مثل العشرات بل والمئات ممن وقع في شراكه، إنّه الحمّى المالطية التي حصدت من الأرواح العدد الكبير دون أن تحترم شيخاً كبيراً أو شاباً صغيراً، بل وتربّعت على صدورنا بحرارتها الحارقة وأعراضها المؤلمة التي أقضّت مضاجعنا ونغّصت حياتنا وزادت من بؤسنا، وكنت آنذاك أحد أشدّ حالتين كانتا مرشحتين للموت لشدّة الإصابة التي ألمّت بنا، وبعد ثلاثة أشهرٍ من العراك المرير مع المرض، اصطفى الله زميلي ليرفعه شهيد الغربة والمرض والدين، ونجّاني من قبضته وشراكه هزيل الجسم منحول الطلعة مصفرّ الوجه وكأني خرجت للتوّ من القبر، وقد توقف شعري عن النموّ والإنبات، وهكذا تدخلت عناية الله لأخرج من مرضي كالفرّوج المنتوف!

لكن الأمر الذي لا يمكن أن أنساه من أؤلئك الإخوة الذين أحاطوني بكل رحمةٍ ورأفةٍ ورعايةٍ، وحبوني بها كما لو كنت بين أهلي وإخوتي، وهذا ما كان عليه حال جميع أحوال المهاجع بفضل الله تعالى، إلا أنّ المرض لم يغادرنا وينصرف عنا حتى خلّف بين ظهرانينا مرضاً آخر لا يقل خطورةً عنه وهو اليرقان الذي أنهك بدوره ما أنهك من الأجساد، وحصد ما حصد من الأرواح، وأحال وجوههم إلى صفرةٍ كالحةٍ تُنبئ بالأحوال المزرية التي يعيشونها، والشرّ الذي يحيط بهم، إضافةً إلى ماهم فيه من شتّى أنواع الضغط الجسدي والنفسي، وما زال جاثماً على صدورنا حتى خلّف وراءه ضيفاً أكثر منه سوءاً وأشد وطأةً وقساوةً ممن سبقه من الضيوف الثقلاء.

السلّ

إنّه السلّ الذي طالما رافقنا من بداية دخولنا السجن، لكنّنا لم نكن نتعّرف عليه في البدايةً لقلة الإمكانات المتوفرة لدى أطبائنا داخل المهاجع، حيث كنّا نفاجأ بمرض البعض من إخواننا فتنحل أجسامهم وتهزل أشكالهم مع ظهور بعض الأعراض المؤلمة عليهم، إلى أن يستشري فيهم المرض ويتمكّن من أبدانهم لينزف الدم منهم أخيراً فيصبح من الصعب علاجهم، ويرحل عنّا الشهيد تلو الشهيد؛ ولم نتمكن من كشف هذا المرض القاتل إلا في عام ١٩٨٧ الذي شهد الكثير من العذاب والجوع والخوف مجتمعين، بل جميع أصناف العذاب النفسية والجسدية حتى أخذ الشباب يتهاوى الواحد بعد الآخر بهذا المرض وبأشكاله المختلفة؛ وكنّا من قبل إذا سمعنا بمرض السلّ تبادر الى أذهاننا أنّ رئة هذا المسكين قد أصيبت، فالمفهوم لدينا أنّ السلّ لا يصيب إلا الرئة فقط، أما هنا وفي هذا المكان فقد أصبحنا نسمع بآذاننا ونرى بأعيننا عشرات الحالات المصابة بشتى أنواع السلّ: سلّ الرئة، وسلّ العظام، وسلّ الأمعاء، وسلّ السحايا وووو....

وقد تكون أنت أحد المصابين حيث أنّ السجن كلّه مصابٌ بذلك كما تبيّن لنا، إلا أنّ المناعة والصمود ضدّ هذا المرض تختلف من شخصٍ لآخر، فالذي يملك المناعة القوية يتماسك أمامه، حتى إذا ما ضعف في حالةٍ ما سقط في شراكه كما سقط غيره من أصحاب الأجسام الضعيفة أصلاً.

وعندما انتشر هذا المرض القاتل سارعت إدارة السجن إلى تخصيص مهاجع خاصة للمصابين في مكانٍ واحدٍ ليحصروا الإصابات ويخفّفوا منها، وليُبعدوا شبحها عنهم بالدرجة الأولى وعن الآخرين الذين لم تظهر عليهم علامات المرض بعد.

وشاء الله أن كنت ممن وقع في شراك هذا المرض أيضاً، لأجد نفسي معزولاً مع بقية الإخوة في مهاجع لا يبدو عليها شيء من الامتيازات التي قد تعين على تجاوز المحنت’،

فالدواء إذا ما أدخلوه إلينا عشرة أيام قطعوه خمسةً بعدها، ليكون لزاماً على السجين أن يعيد علاجه من جديد، لأنّ انتكاسة المرض تكون أصعب من المرض ذاته.

وهكذا سترى في هذه المهاجع ما لا تراه في المستشفيات العامة... فهذا يتألم من أصابته البالغة... وهذا ينزف دماً من رئته... وهذا يبصق بلغماً ممزوجاً بالدم في كيسٍ من النايلون أو صحنٍ صغيرٍ أعدّه لذلك.... وهذا يتلّوى من شدة ألمه بسلّ السحايا التي أخذت منه كلّ مأخذٍ وتمكّنت وتحكّمت فيه حتى أفقدته توازنه... وهذا.. وهذا...وهذا... وأنت ما بين هذا وذاك تقع في مصيبةٍ أخرى إضافةً الى مصيبتك التي ألمّت بك فقذفت بك في هذا المستنقع المرير، فالجلوس في مهاجع السلّ مصيبةٌ بحدّ ذاتها، فضلاً عن الممارسات التي يستعملها السجانة معهم ظناً منهم أنه تحسينٌ للمعاملة حتى يخفّفوا عنهم، حيث قرّروا أن يُخرجونا للتنفس حوالي خمس ساعاتٍ متواصلةٍ كل يومٍ عراة الصدر حفاة الأرجل منكسي الرؤوس وأيدينا وراء ظهورنا، وهذا أمرٌ تعوّدنا عليه، إلا أنّ المفارقة هنا هي جلوسنا على أرضٍ ملساء في وقت الظهيرة التي تذيب الأحجار فما بالك بالأجساد التي ستجلس على تلك الأرض الحارقة، والتي كانت تكوي الأرجل والأجساد دون أن تستطيع الاعتراض أو حتى التّحرك بحركةٍ ولو بسيطةٍ، فكم وكم من أشخاص تورّمت أقدامهم وامتلأت قيحاً بمجرّد لمسها للأرض، كما لك أن تتخيّل كيف كانت رؤوسنا ورقابنا سوداء كالزنوج تماماً من استمرار جلوسنا عراةً تحت أشعةٍ الشمس، إضافةً إلى شتّى أنواع العقوبات التي يتسلّون بها علينا، وهذا ما دعى كثيراً من الشباب المصابين ليعودوا الى مهاجع الأصحّاء للخلاص من هذا العذاب المتلاحق والمستمر، ولينتقل واحدهم من جحيمٍ إلى جحيم برضاه!

ولم نجد خلاصاً من هذا المرض كما رأينا من الأمراض السابقة التي استضافتنا ثم رحلت عنا غير مأسوفٍ عليها، أما السلّ فقد بسط فراشه في أرض مهاجعنا وباحاتنا، وتربّع على موائدنا والتهم أجسادنا وأبداننا حتى خرج الكثير منا ونال حريته ولم يخرج من أبداننا إلا بعد

العلاج المكثّف والمتواصل، وهو يسأل الله السلامة له ولاخوانه الذين تركهم رهن السجن والمرض والخوف والمصائب.

طرائف وكرامات

من الطرائف التي كانت تحدث معنا والتي تكاد تكون من المضحكات المبكيات وهي كثيرةٌ على الرغم من أنّ كلّ الأحداث التي تمرّ معنا خاليةٌ من أيّ شيءٍ يوحي بذلك؛ فمّما حدث يوماً مع أخٍ لنا عندما أراد أن يُدخل طعام العشاء وشاءت إرادة الله أن يكون العشاء لبناً هذه المرّة، فأمره الشرطي أن ينحني بوجهه، حتى إذا اقترب وجهه من جاط اللبن غمس له وجهه في اللبن ثم أدخل الجاط وهو يضحك، فركض عليه أخوانه وأخذوا يلحسون اللبن عن وجهه وهم يضحكون من ذلك، حتى لا تضيع الفائدة من هذا اللبن المعلّق على وجهه!

وأما ذلك الأخ الذي أمره الشرطي بأن يفتح فمه ويمدّ لسانه وهو مغمض العينين طبعاً، وفعلاً نفّذ الأخ الأمر تماماً واستعد لأن يُدخل له شيئاً في فمه، إلا أنه تفاجأ بأنّ كرباجاً جاءه على لسانه كاد يتنزعه من فمه!

وأما من خرج ليُدخل لنا طعام العشاء وكان البطاطا المسلوقة، حيث أمره الشرطي بأن يضع حبةً كاملةً في فمه فوضعها مجبراً، إلا أنّه لم يستطع أن يلوكها أو أن يمضغها، لكن الشرطي أخذ حبةً ثانيةً ووضعها في فمه، وأتبعها بثالثة حتى أوشك هذا المسكين على الاختناق الذي بدا واضحاً على وجهه، إلا أنّ معية الله تعالى ورحمته لفّت الأخ وأحاطت به عند آخر لحظةٍ، حيث استطاع الإخوة أن يساعدوه على إخراج الحبّات من فمه ليقع على الأرض منهكاً؛ لكن الاخوة الذين جاؤوا إليه حوّلوا الحادثة إلى مجرد نكتةٍ عاتبوه فيها على أنه أكل حصة مجموعة من عشرة أشخاص ثم راجعها دون أن يستفيد منها أحد!

ومن الحوادث الطريفة التي حدثت مع أخ لنا عندما كنّا في التنفس وكان العريف الظالم فواز في التنفس، وكان هذا العريف معروفاً بظلمه وإجرامه وتشويهه لأي أخٍ يقع بين يديه، وحدث أن وقع هذا المسكين بين يديه فعلاً، فأخذ يتمتم بالدعاء وبعض الآيات التي يلهمه الله إياها، لكن العريف فواز انتبه اليه بأنه يتمتم فسأله: ماذا تقرأ؟ فأجابه الأخ بكل صدقٍ:

إني أدعو الله أن يخلّصني منك؛ فردّ عليه فواز بغير ما يمكن أن نتوقع قائلاً: اذهب إلى مكانك فقد أنجاك الله مني! فكانت هذه الحادثة بمثابة كرامةٍ لهذا الرجل لأنه نجا من الموت الذي لم ينجُ أحدٌ ممن تعرّض لمثل ذلك أمام هذا الظالم بالذات.

كما سأروي لك أخي القارىء قصة ذاك الأخ الحلبي الذي اعتُقل بطريقة الخطأ، إذ أنه لم يكن يتمتع بالالتزام الديني الذي يُعتبر جريمةً بحدّ ذاته، إلا أنّ اعتقاله تمّ لأمر يريده الله وجيء به في البداية إلى الفرع العسكري حيث طالت فترة مكوثه في الفرع وبقي طيلة هذه الفترة دون حلاقة، حتى إذا جاء موعد ترحيله مع زملائه إلى سجن تدمر أصبح شكله بلحيته الطويلة وكأنه شيخ كبير أو زعيمٌ للتنظيم عظيم! وهذا ما كان الشرطة ينتظرونه دائماً، حيث أنهم لما رأوه ينزل من سيارة النقل تكالبوا عليه كما تتكالب الذئاب الجائعة إلى فريستها، كلٌ بدوره حتى يشفوا منه صدورهم، فإذا ما انتهى منه أحدهم أخذه الآخر وناله باللكمات والرفسات واللطمات منادين له: تعال يا زعيم التنظيم؛ والمسكين يستغيث ويقول لهم: والله لا أعرف الإخوان وليست لي أيّ علاقةٍ بهم؛ وهكذا مرّةً ومرّتين وثلاث مرّات ولكن دون جدوى، بل راحوا يزيدون عليه ضرباً حتى يئس منهم أخيراً فقال لهم بصوت مرتفع: "والله إني عرصٌ مثلكم"، فضحكوا من قوله وتركوه!

وأما عن ذاك الأخ اللاذقاني والذي كان يجلس متحدثاً إلى زملائه بصوتٍ مرتفعٍ قليلاً وإذ أحدهم ناداه بـ"أبي عليّ"، فسمع الشرطي ذلك ونادى رئيس المهجع قائلاً:

. نادِ هذا الشخص الذي يُقال له أبو عليّ.

فلما جاء قال له الشرطي:

. أأنت أبو عليّ؟

قال: كنت أبا عليّ في السابق وأما الآن فإنني أبو صطيف!!

لأنه يعتقد بأن لقب أبي عليّ سيحمّله عقوباتٍ ليس بحاجة إلى تحملها!

وكان مما يحدث أنّ الشرطي إذا أراد أن يمسح حذاءه نادى لأحد أفراد المهجع أن يُخرج بشكيراً ويأتي إليه ليمسح له حذاءه، فيسأله وهويقوم بمهمة المسح: ماذا تعمل في حياتك اليومية لما كنت خارج السجن؟ فيردّ الأخ قائلاً: أعمل عتالاً أو عاملاً، علماً بأنه مهندسٌ أو طبيبٌ، وذلك خشية أن ينزل به العقوبة والإهانة.

ومن المضحك على المستوى الأخلاقي والثقافي عندهم أنّ أحدهم جاء وأعطى أخاً موهوباً لنا في المهجع صورة وجهٍ يريد رسمه، ثم جاءه بعد فترةٍ فسأله: ألم تنته منه؟ قال: بلى، ولم يبق إلا "رتوش" بسيط؛ فردّ عليه قائلاً: ومن أين لي أن آتيك بالرتوش؟!

وأما الحادثة التي لا تُنسى أبداً، والتي حدثت مع الأخ الشهيد أحمد الشغري "ابوصهيب" رحمه الله، حيث كان من ساكني الباحة الرابعة، وبالتحديد في مهجع ٢٣ حيث كان دور الباحة الرابعة بالخروج إلى الحمّامات في نوبة العريف فواز المعروف بإجرامه؛ وكان الشهيد أبو صهيب قد وقع فريسة الحرس الذي علّمه ليكون صيده الثمين في الباحة، وبالفعل وما أن بدأ الحمّام في المهجع الأول من الباحة وهو مهجع ١٧ حتى أخذوا بضرب السجناء وتعذيبهم بشكلٍ مؤلمٍ وشديدٍ، وكأنّ شبح الموت يحيط بهم من كلّ جانبٍ؛ وما أن عادوا بهم إلى مهجعهم ومضوا ليُخرجوا المهجع الذي بعده حتى أتى العريف فواز إلى مهجع ٢٣ وصاح برئيس المهجع: جهّز المعلّم..... فردّ عليه بصوت يكاد يتقطّع من الألم قائلاً: جاهز يا حضرة الرقيب..... ليزداد ألم سماع أصوات الكرابيج والسياط ممزوجاً بأصوات الصياح والعويل، مع الألم النفسي الذي سيتحوّل بعد قليلٍ إلى برنامجٍ عمليٍ ينتهي بالموت المحتّم حسب ما عوّدنا عليه هذا الطاغية عندما ينفّذ عقوباته.

وهكذا أخذ أفراد المهجع ينتظرون دورهم على أعصابهم، جميعهم في كفةٍ والحالة النفسية التي يعيشها هذا المسكين في كفةٍ أخرى، فهو يعلم تماماً أنها لحظاته الأخيرة من الدنيا،

والجميع يتضّرعون إلى الله منيبين إليه محتمين به ومتوكلين عليه بأن يلطف بهم وأن يصرف كيد هؤلاء الظالمين عنهم وعن أخيهم المُعَلَّم، حتى إذا ما أدخل المفتاح في قفل الباب لم يُفتح، فجاء شرطي آخر ليفتحه فلم يُفتح، وحضر ثالثٌ ورابعٌ فلم يُفتح الباب... إنّه الله الذي لا إله إلا هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء.... حتى إذا ما استيأسوا من ذلك نادى زعيم الزبانية رئيس المهجع قائلاً: إقرأ الآيات التي أغلقت الباب حتى يُقتح مرّةً ثانيةً وإلاّ سأفعل بك كذا وكذا، وهكذا انقضى الوقت وحان وقت التفقد بنوبةٍ جديدةٍ من الشرطة، وما زال أفراد المهجع وأبو صهيب يرتعدون خوفاً من مجيئهم إلى التفقد، إلا أنّ لطف الله الذي أحاط بهم جميعاً فمنع الباب أن يُفتح أحاط بهم في التفقد أيضاً، حيث أتى الزبانية الجدد دون أن يكون العريف فواز وشرطته معهم، علماً أنهم ما أن وضعوا المفتاح في القفل هذه المرّة حتى فُتح الباب من فوره، وأُخذ التفقد بكل سلامةٍ وهدوءٍ ليأتي الدوام الثاني بعد ذلك ويخرجوا إلى الحمّام مع بقية مهاجع الباحة ويعودوا إلى مهاجعهم دون أن يمسّهم أحدٌ بسوءٍ، ومن تلك اللحظة كانوا ينظرون إلى الأخ الشهيد أبي صهيب وكأنه وليّ من أولياء الله الصالحين!

وقفات

عبّر القرآن الكريم بكلماتٍ شتّى وألفاظٍ متنوعةٍ للدلالة على وضعياتٍ نفسيةٍ مختلفةٍ يمرّ بها الإنسان في مرحلةٍ من مراحل حياته فمنها:

الجَزَع: وهو حزنٌ يصرف الإنسان عمّا هو بصدده.... وقد ورد ذكره في القرآن مرّتين.

الحَذَر: وهو الاحتراز من مخيف.... وقد ورد ذكره في القرآن سبع عشرة مرّة.

الخَشيَة: وهو خوفٌ يشوبه التعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علمٍ بما يُخشى منه، وقد ورد ذكره في القرآن ثلاث وعشرون مرّة.

الرّعب: وهو امتلاء القلب بالخوف.... وقد ورد ذكره في القرآن خمس مرّات.

الرّهبة: وهي المخافةٌ من تحرّزٍ واضطراب.... وقد ورد ذكرها في القرآن ثماني مرّات.

الرَّوع: وهو الفزع، فعندما نقول: أصابه الرَّوع أي ألقي في قلبه الفزع.... وقد ورد ذكره في القرآن مرّة واحدة.

الفَرَق: وهو الفزع وشدّة الخوف.... وقد ورد ذكزه في القرآن مرّة واحدة.

الفَزَع: وهو انقباضٌ يعتري الإنسان من الشيء المخيف.... وقد ورد ذكره في القرآن ست مرّات.

الهَلَع: وهو أسوأ الجزع.... وقد ورد ذكره في القرآن مرّة واحدة.

الوَجَف: وهو الاضطراب.... وقد ورد ذكره في القرآن مرّة واحدة.

الوَجَل: وهو استشعار الخوف، فعندما نقول "وجِلَ" أي خاف وفزع.... وقد ورد ذكره في القرآن خمس مرّات.

الخَوف: وهو توقع مكروهٍ عن دلالةٍ وعلامةٍ معلومةٍ أو مظنونةٍ، وهو سَوط الله يُقوّم به الشاردين عن بابه ويسير بهم إلى صراطه.

وكثيراً ما كنّا نسمع بالخوف أو بمعنى من معانيه دون أن نلقي لهذه الكلمة بالاً، تلك الكلمة التي لا يتعدى عدد حروفها أصابع اليد الواحدة، حيث نقرأ الآيات التي تحتوي على تلك الكلمة ونتحدث عن معانيها دون أن تُحدث في قلوبنا أي تأثير، وكمْ كنا نسمع عن أناس يُقال عنهم بأنهم لا يعرفون الخوف ولا يهابونه، لما يملكون من جرأةٍ ورباطة جأشٍ وإيمانٍ وقوةٍ، إلى غير ذلك من المقوّمات التي يتمتع فيها الأبطال، وكم كنّا نقرأ قوله تعالى معبّراً وحاكياً عن حال الصحابة في غزوة الخندق وقد أحاط بهم المشركون من كل جانب فقال: (إذْ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذْ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا)؛ كل ذلك من شدّة الخوف الذي اعترى قلوب الصحابة آنذاك، ورسول الله صلى الله عليه وسلّم ما زال بين ظهرانيهم.

كما نجد كلمة الخوف وقد جاءت في سياق العقوبات المنزلة من عند الله على تلك القرية التي كانت تعيش في أمانٍ وسلامٍ، وتتمتع بكامل مقومات الحياة الحرة الكريمة، إلا أنها لم تُؤدّ شكر الله على نعمه فظلمت نفسها بذلك وكان عاقبتها الجوع والخوف مجتمعين (ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنةً مطمئنةً يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون).

وكما في سورة البقرة عندما وردت كلمة الخوف لتدلّ على أنه من أصعب البلاء، إضافةً الى أنواع أخرى من البلاء تصيب الإنسان المؤمن ليحثه الله على الاستسلام لأمره والتوكل عليه والإنابة والرجوع إليه، والاستعانة بالصلاة والدعاء بين يديه، فهو وحده المعين على تحمّل وتجاوز تلك المصائب والملمّات واستقبالها بالرضا والتسليم.

فحقيقة الخوف لا يمكن أن يعرفها الإنسان حتى يتعرّض لها، لأنها ليست مجرّد كلماتٍ تُنثر وأشعارٍ تُنشد، بل هي مواقف واقعيةٌ نعيشها حياةً حقيقية.

هذه المواقف التي مرّت بنا كانت حياةً عمليةً عشناها كلّ لحظةٍ وكل ساعةٍ وكل يومٍ ونحن نخوض معاركها دونما سلاحٍ مادي يدفع عنّا شرور الظالمين، إذ كنا ننتقل من ضربةٍ لأخرى ومن ظالمٍ لأظلم ومن موتٍ لآخر، حتى نصل إلى مرحلةٍ من التّعب والإرهاق النفسي والجسدي ما يُضفي علينا صفرة الوجوه وخفقان القلوب ورجفان الأبدان وتلعثم الشفاه وشخوص العيون!

حالةٌ تحاكي تماماً ما جاء في وصف الخالق سبحانه للصحابة الكرام في حالات البلاء التي تعرّضوا لها من خوفٍ وجوعٍ وبلاءٍ فقال: (ولنبلونّكم بشيءٍ من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات وبشرّ الصابرين. الذين إذا أصابتهم مصيبةٌ قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون. أؤلئك عليهم صلواتٌ من ربهم ورحمةٌ واؤلئك هم المفلحون)؛ فهذه الآيات الكريمات تمثيلٌ حقيقيٌ لحقيقة البلاء بكلّ أشكاله ومعانيه التي عرفناها وسمعنا بها وعشناها حياةً في ظلّ حكمٍ جائرٍ قائمٍ على القمع والوحشية والاستبداد وزرع الخوف والهلع والرعب في قلوبنا طيلة أربعة عقودٍ ونيّف.

أخيراً وليس آخراً

. إلى كلّ أخٍ حرّ كريمٍ سُلبت حريته وانتُزعت كرامته فثار وناضل لنيلها واسترجاعها ممن سلبها منه.

. إلى كلّ أبٍ غيورٍ اختُطف ولده من بين يديه ليصبح رهينةً بين مخالب الطغاة.

. إلى كلّ أمّ حنونٍ فقدت فلذة كبها أو شريك حياتها وذرفت دموعها من أجل حياةٍ حرةٍ كريمة.

. إلى كلّ أختٍ فقدت أخاها أو أباها أو أختها، أو فقدت عذريّتها عندما وقعت في مستنقعات الظلم وبراثن الطغيان.

إلى كلّ هؤلاء الإخوة والأخوات والأبطال والبطلات والأفاضل والفاضلات نقول:

لا تحزنوا إنّ الله معنا، ومن كان الله معه فلن يضرّه أحد، ولا تيأسوا فسيجعل الله بعد عسرٍ يسراً، ولن يغلب عسرٌ يسرين، وليكنْ معلوماً لديكم أنّ الفجر الصادق والنور الباهر يسبقه ظلامٌ دامسٌ وليلٌ بائسٌ، فلا بدّ لليل أن ينجلي ولا بدّ للقيد أن ينكسر.

كما نقول لكلّ عالمٍ مجاهدٍ بقلمه ولسانه لم يخفْ في الله لومة لائم (وهم كُثُرٌ في أمة محمد صلى الله عليه وسلم):

. إلى كلّ عالمٍ عاملٍ مخلصٍ زرع في قلوبنا روح الحماسة ومعاني التضحية والفداء، فحثنا على المثابرة في الطريق حتى ننال وسام الشهادة والاصطفاء، أو نبني أمجاد العزة والكرامة.

. إلى كلّ متكلّمٍ وخطيبٍ آتاه الله علماً فسلك به سبيل الهداية والسلام، وأنفق علمه على عباد الله فجسّد بسلوكه مسار الصالحين، وكان خير خلفٍ لخير سلفٍ، إلا أنه اصطدم بجدار الظلم والطغيان وسدود الكفر والعصيان، فلم يَهن ولم يَضُعف ولم يخف، وتابع

مسيرته صادحاً بالحق أمام أولئك الجبابرة فكان مصيره وراء القضبان أو على أعواد المشانق.

. إلى كلّ داعيةٍ تعرّف على الله وأناب إليه وأدرك مهمته التي أوكله الله بها فيما استخلفه الله فيه، فحمل الأمانة وتفقّه المنهج، وسار ينشر الدعوة حتى أصبح مشعلاً من مشاعل الحق، ينير الطريق أمام الجماهير الثائرة التائهة في دروب الجهل والتضليل التي أسدلها عليهم دعاة الكفر وأعوان الشياطين، فأصبحوا رهائن في شراك الجبابرة الظالمين، وكانوا ممن قال الله سبحانه فيهم (من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم منْ قضى نحبه ومنهم منْ ينتظر وما بدّلوا تبديلاً).

. إلى كلّ أولئك المشاعل الأبطال والأحبة الأخيار نقول:

لقد علّمتمونا وما زلتم تعلّمونا ولقد تعلّمنا منكم أنّ النصر مع الصبر وأنّ النصر صبر ساعةٍ وأنّ مع العسر يسراً، وأنّه الطريق المحفوف بالمصاعب والملمّات والشدائد والموبقات، لكنه ذو النهاية السعيدة، فسرنا على بركة الله لنكون من تلك الأمة التي عناها الخالق سبحانه بقوله (كنتم خير أمةٍ أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله).

وبالمقابل

إلى تلك الرؤوس المعمّمة بعمائم مزيّفةٍ وبلحىً مضللّة وأفواهٍ كاذبةٍ مارقةٍ وشخصياتٍ متملّقة ليكونوا فيمن قال الله فيهم: (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضلّه الله على علمٍ وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوةً فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون).

. إلى أصحاب النفوس المريضة والقلوب الخانعة المنافقة التي انضمت إلى الطغاة الجبابرة وعملت معهم ففسدت وأفسدت وضلّت وأضلّت من أجل عرَضٍ من الدنيا قليل.

. إلى أولئك الذين قلبوا الحقائق وزيّفوها ولفّقوا الأكاذيب وزوّروها وتعاموا عن الحق جحوداً وكفراً وتملقاً وخداعاً وزوراً، فكانوا كمثل من قال الله فيهم بشأن فرعون (فاستخفّ قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين)، فيكفيهم وحسبهم أن يصفهم الله بهذا الوصف ويفضح ما تنطوي عليه سرائرهم، كما حال المنافقين الذين اتخذوا اليهود والنصارى أولياء من دون الله متذرّعين بالحجج الواهية، حتى جاء البيان الإلهي الفاضح بقوله (فترى الذين في قلوبهم مرضٌ يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرةٌ فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمرٍ من عنده فيصبحوا على ما أسرّوا في أنفسهم نادمين)؛ لكنها سنّة الله في كونه أن ترى من هؤلاء وهؤلاء، حيث قال سبحانه (وهو الذي خلقكم فمنكم مؤمن ومنكم كافر)، إلا أنّ إرادة الله قضت بأن يقيم الإنسان الحجة على نفسه باستخلاف الله له في الأرض، فإن عمل صالحا فلنفسه وكان من المؤمنين، وإن عمل غير ذلك فعليها وكان من الكافرين، وكلا الفعلين باختياره (وليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين).

أخيراً

شاءت إرادة الله أن نخوض غمار هذه المعركة الحامية الوطيس لنكون شهداء على نظامٍ مجرمٍ أهلك الحرث والنسل وأحرق الزرع والضرع واستباح كل شيء للحفاظ على سلطته الاستبدادية، من خلال الخطوات التي رسمها لتثبيت أركان حكمه، وفعلاً فرّج الله عنا بعد هذه المرحلة الصعبة من غياهب سجونه لنرى بأعيننا تطبيق هذه الخطوات على أرض الواقع، حتى قبضه الله إليه وقصف روحه الخبيثة، ليكمل المشوار عنه ابنه المجرم بشار الذي حذى حذوه وانتهج نهجه، فجعل من سورية الحبيبة مزرعةٍ له ولحاشيته من المجرمين، إلا أنّ وعد الله لعباده لا بدّ آت مهما طال الزمن، وقد لاحت بشائر النصر ليزول الظلام ويأتي فجر جديد، فجر الحرية والكرامة....فجر الأخوة والإباء... فجر البطولة والإخاء....

نعم، فبعد عرض هذا الوضع المؤلم الذي عشناه في "جهنم حافظ الأسد" كما سماها بعض زبانيته، والتي جعل منها منصة انتقامٍ وتصفيةٍ لكلّ حرٍ أراد حياةً حرةً كريمةً تقوم على العدل والمساواة، واعتبار كرامة الإنسان الهدف الأول لمن أراد أن يسوس الشعوب ويقودها.

نقول إنّ كلّ مجتمعٍ أياً كانت شريعته يجب أن يعيش أفراده في أمنٍ وطمأنينةٍ، وهذا ما سعى الإسلام إلى تقريره وعمل على تعزيزه، فقد شرع الله تعالى للعباد خير دين، فيه كلّ القواعد التي تُبنى عليها السعادة وتنشر الحب والمودة والوفاء وتعزز التعايش بين أفراد خلقه مهما كانت عقائدهم ومنهجيتهم في الحياة، ولعل من أهم تلك القواعد التي دعا إليها الإسلام وحضّ عليها "إقامة العدل" فهو أساس الملك والحكم، فإذا ما أخلّ الخلق بهذه القاعدة ستحلّ محلها قاعدةٌ أخرى هي عكسها وضدها تماماً وهي "الظلم" الذي يحيل شريعة الناس إلى شريعة غابٍ إذا ما استحكم وتمكّن، وصدق رسول الله في قوله: "الظالم سيف الله ينتقم به وينتقم منه"؛ وليست الحياة إلا أياماً معدودةً يعيشها الإنسان، فإما أن تكون خيراً ليُجزى

به خيراً في الدنيا وجنةً في الآخرة، وإما أن تكون شراً ليُجزى به السمعة السيئة في الدنيا والخزي والنار في الآخرة وبئس المصير.

وأما من وقع تحت ظلم هؤلاء وفي سجونه فنسأل الله أن يتقبل منّا ومنهم، وأن نكون من الصابرين على ما قُدّر علينا، وأن يكتب لنا الأجر على ما أصابنا، وأن ينتقم ممن ظلمنا في الدنيا قبل الآخرة، وهذا يقيننا، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلبٍ ينقلبون.

كما نسأل الله أن نكون من أولئك الذين جعلوا من سعادة الآخرين هدفاً لهم، وألاّ نكون عوناً لظالمٍ على ظلمه لأنّ ذلك جريمةً لا تُغفر، لقوله صلى الله عليه وسلم "من مشى مع ظالمٍ ليعينه وهو يعلم أنه ظالمٌ فقد خرج من الإسلام".

ونرجو من الله تعالى أن نكون قد وُفّقنا لبيان حقيقة طاغيةٍ من طغاة العصر وظالمٍ من ظلاّمه، مرّ على تاريخ الأمة فدنّس ترابها واستباح حرماتها واعتقل رجالها وأعدم شبابها ونال منها ما نال، إنه (الطاغية المقبور حافظ الأسد) أسكنه الله الدرك الأسفل من النار وبئس المصير.

والحمد لله أولاً وآخراً، وله الفضل والمنّة وإليه العودة والمآب.

مجرزة تدمر

سُئلنا كثيراً عن مجزرة تدمر التي نفذها النظام الاسدي المجرم إلا انا ام نكن نملك الاجابة على ذلك فلم نتلتقي مع احد منهم حيث تم اعدامهم رشاً بالرصاص قبل دخولنا الى هذا السجن حيث وجدنا آثار طلقات رشاشات على الجدران داخل المهاجع وآثار الدماء التي نزفت من هؤلاء الشهداء وبعض آثار اللحم المتناثرة في بعض الاماكن التي لم ينتبه اليها من نظفوا المكان بعد المجزرو وأرادوا اخفاء الجريمة وقد تأكدنا من ذلك بعد خروجنا من السجن حيث التقينا مع بعض شهود العيان من مدينة تدمر الذين زودونا بمكان دفن الجثث و هي منطقة تل عويمر التي تقع شمال شرق تدمر حوالي ٥ كم آنذاك أي ١٩٨٠ و أما الآن فأصبح السكن قريب منه و قد عمد النظام الأسدي المجرم لإخفاء الجريمة و طمس معالمها ببناء خزانات الوقود للجيش في ذاك المكان كما أفادنا الشهود بأن عملية المجزرة كانت نهارا و أما نقل الجثث فكان ليلاً و تم الاستعانة بشاحنات و تركسات لعائلات من أهالي تدمر و منهم بيت الخطيب الذين أجبروا على استعمال سياراتهم و تركساتهم ليلا و قد تأكدنا من ذلك أكثر عندما شاهدنا بعضاً ممن نفذوا هذه المجزرة على شاشات التلفاز وهم يعترفون بقيامهم بهذه الجريمة عندما تم القاء القبض عليهم في الاردن حيث كلفوا بالقيام بعملية امنية داخل الاراضي الاردنية إلا انه تم اعتقالهم قبل ان يتمكنوا من ذلك وتمت الاعترافات من افواههم وهذا نص اقوالهم كما جاءت على التلفاز:

في شهر شباط من عام ١٩٨١ اعلنت السلطات الامنية الاردنية عن اعتقال مجموعة من المخابرات السورية في الاردن كانت نخطط لاغتيال السيد مضر بدران رئيس الوزراء الاردني وقت ذاك وكانت المفاجأة ان اعترف عدد من افراد تلك المجموعة والذين ينتمون لسرايا الدفاع السورية بمشاركتهم في العام الذي سبق بمجزرة تدمر الكبرى وأدلوا على مشهد من العالم وسمعه بتفاصيل تلك الجريمة نثبتها هنا كواحدة من الشهادات النادرة على ما حدث وننقل اقوال الجناة بالنص الدي ورد في وسائل الاعلام الاردنية وتناقلتها وكالات الانباء العربية والدولية من بعد.

إفادة عيسى ابراهيم فياض

-الرقيب في سرايا الدفاع-

س: ممكن تقدم نفسك؟

ج: عيسى ابراهيم حامد فياض يلدتي قويقة تلبعة لمحافظة اللاذقية ،تاريخ الولادة ١٩٦٠،أعزب، علوي، والدي ابراهيم حامد فياض،مزارع والدتي جميلة صقر مربية بيت ثقافتي الحادي عشر درست بالقرية حتى الثالث الاعدادي والتحقت بقرية عين العروس مدرسة ثانوية تابعة لمحافظة اللاذقية.

تركت المدرسة واشتغلت مع ابي مزارع عادي لمدة سنة والتحقت في سرايا الدفاع في ١٩٧٩\٣\١٠ وانا الان رقيب في سرايا الدفاع ورقمي ٠٩٥٦٩٨٢

س: سيد عيسى وضح لنا خدمتك العسكرية بشيء من التفصيل .

ج: التحقت بسرايا الدفاع بمعسكر اسمه القابون \ك دورة اغرار. طلت دورة الاغرار ٤٥ يوم والتحقت بدورة ثانية بنفس المعسكر دورة الصاعقة استمرت حوالي ٣اشهر وانتقلنا من معسكر القابون الى معسكر يعقوب الواقع في دمشق كدورة قتال عادي للكتيبة لدورة يعني كتيبة مشاة هنيك تدربنا على السلاح على بارودة كلاشن ،رشاش قاذف، رمي قنابل ، تدريبات عادية ككل التدريبات اي كتيبة مشاة واستمرت هذه الدورة حوالي ٣ اشهر ورجعنا لمعسكر القابون وهنيك عملنا مظلات حوالي ٢٥ يوم ل٣٠ يوم بعدها التحقت باللواء ٤٠ اللي قائده الرائد معين ناصيف زوج بنت العقيد رفعت الاسد(تماضر الاسد) وهو علوي من محافظة اللاذقية واستمريت على عالشي يعني تدريب عادي في الكتيبة ٣٠٢ في نفس اللواء مشاة حتى تم التحاقي بحراسة منزل الرائد معين ناصيف اللي هو قائد اللواء عدد مجموعة الحراسة كان ٢٥ عنصر مسؤول عنها الرقيب اول صلاح ابراهيم ،علوي وهو وجميع عناصر الحراسة علوييين.

س: عيسى.... ايش المهمات التي كلفت فيها اثناء خدمتك بسرايا الدفاع؟

ج:كلفت في مهمتين.

س: ايش المهمة الاولى؟

ج: المهمة الاولى سجن تدمر في ١٩٨٠\٦\٢٦ تعرض سيادة الرئيس حافظ الاسد لمحاولة اغتيال . فجر اليوم الثاني ١٩٨٠\٦\٢٧ فيقونا الساعة ٣ بالليل الصبح وقالوا لنا اجتماع في اللباس الميداني الكامل مع الاسلحة . واجتمعنا بالساحة واخدونا الى سينما في اللواء ٤٠ وهناك كان فيي منتظنا الرائد معين ناصيف قائد اللواء والقى فينا كلمة قال هدول الاخوان المسلمين ماعم يفرقوا بين مسلم سني ومسلم علوي ومسيحي وعم يقتلوا بهالشعب

ومبارح حاولوا اغتيال الرئيس . لذلك اليوم رح تقومو بهجوم على اكبر وكر لهم وهو سجن تدمر . قال مين بدو يقاتل ما حدا رفع ايدو . الامر عسكري قال لنا اطبعوا بالسيارات اطلعنا بالسيارات مجموعة قدرها ٨٢ واحد تقريباً . وصلنا لمطار المرة القديم وكان في انتظارنا مجموعة من اللواء ١٣٨ احد الوية سرايا الدفاع اللي قائده المقدم علي ديب . علوي من اللاذقية وكان موجود في انتظارنا ١٠ طائرات هيلوكوبتر.

طلعنا بالطلئرات بقيادة قائد اركان اللواء ١٣٨ المقدم سليمان مصطفى ،علوي، وكان معنا ضباط الملازم اول ياسر باكير ،علوي من حماه والملازم منير درويش ، علوي ، والملازم رئيف عبد الله ، علوي . يعني الثلاثة هدول من لواء ٤٠ .ط لعنا بالطائرات باتجاه تدمر ووصلنا حوالي الساعة ٦ونصف الصبح في نفس اليوم وهناك نزلنا من الطائرات وفرقونا الى مجموعتين : مجموعة اقتحام ومجموعة ظلت في المطار. المجموعة التي راحت الى السجن اجت سيراة دوج تراك يعني ونقلتنا للسجن بالسجن توزعنا ال مجموعات حوالي ٦ مجموعات واكثر يعني كانت مجموعتي ان حوالي (١١)واحد .يعني المجموع الكلي اللي تحرك للسجن حوالي ٦٠ واحد هيك شي ، مجموعتي كانت بقيادة الملازم منير درويش وفتحوا لنا باب المهجع يعني الباب بتاع النهجع اللي دخلنا حوال ٦ لحد ٧ وقتلنا اللي فيه كان مجموع اللي فيه حوالي ٦٠ واحد ٧٠ واحد . اسمعت انا انه فيه قتيل اخد بارودة من زميلي من السرايا اسمه اسكندر احمد أخذت منه البارودة من احد السجناء رحت انا لعندو وشفتو ، ولّا واحد بناديلي قلت له شو بدك .قال : اعطني مخزن . قلت له : ليش؟ قال : في واحد لسا ما مات بدنا نموته.قلت له: اعطني بارودتك بما انا اعطيت بارودتي لزميلي بارودتو كانت خربانة اخدت بارودتو ورشيتو . يعني كان مجموع اللي رشيتهم حوالي ١٥ واحد . ومجموع اللي قتلوا من الاخوان المسلمين في السجن حوالي ٥٥٠ واحد . والمجموع اللي قتلوا من السرايا كان واحد واثنين جرحى.

طلعنا عاد صار يغسل ايدي ورجليه وفي كانوا ملطخين بالدماء وكان الملازم رئيف عبد الله .طلعنا سألوه للملازم رئيف عبد الله ليش كنت تفرق المساجين كل واحد لوحدو قال مبارح كانوا يقتلوا اخواننا في حلب بكلية المدفعية.

س:كيف كان يفرق بين المساجين؟

ج: يعني اللي ما مات يموته.

س: يتفقد فيهم؟

ج: اي. قلت كمان في ضابط اطلق نار على احد ما قتل قال له تعال نكفي عليه ما قتلت واحد من عصابة الاخوان المسلمين . فطلعنا بسيارة واحدة ونقلنا للمطار وكان في انتظارنا المجموعة التي ظلت بالمطار وطيارات الهيلوكوبتر.

س: كم استغرقت هذه المهمة؟

ج: حوالي نصف ساعة.كان في دوي قنابل وصيحات الله اكبر وطلعنا بالطائرات باتجاه الشام لمطار المزة القديم. ومن هنيك مجموهة اللواء ١٣٨ التابعة لسرايا الدفاع طلعت على لواءها ومجموعتنا لواء ٤٠ طلعت على لوائها وكان بانتظارنا الرائد معين ناصيف اللي قال لنا وشكرنا على جهودنا وعزانا بوفاة زميلنا وقال لنا كل واحد يلتحق بعمله فالتحقنا بعملنا .

س:انت بينت لنا ايش كان دورك . ما بينت لنا شو دور زملاءك اللي اشتركوا في العملية؟

ج: مثلاص في محمد عمار قال قتل اللي قتل اسكندر احمد هذا الرقيب اللي قتل معنا. خلصوا البارودة وقتلوا . وقالوا لي انه رش كمان في المهجع نفسه. محمد عمار ، علوي قام بحراسة منزل الرائد محمد ناصيف، علوي ،ابراهيم يونس،علوي/ عريف مجند من منطقة مصياف. وكمان قال لي رشيت ما بعرف شو رش بس قال انه رشيت.

س: ما حدد عدد معين من اللي رشهم؟

ج: ابداً ما قال لي. ابراهيم مكنا كان مع الملازم رئيف عبد الله. ابراهيم مكنا ،علوي ، عريف مجند كمن منطقة جبلة مافظة اللاذقية كان يفرد مع الملازم رئيف عبد الله المساجين.

س: وين ذكرولك هالشي عن ادوراهم؟

ج: ابراهيم مكنا ان اشفته . شفته مع الملازم رئيف عبد الله في السجن.ابراهيم يونس حكي لي بالسكن.كنت نازل انا وياه عالبلد حكى لي محمد عمار قال له انه قتله.

س: طيب لما ارجعتم من السجن جرى اي توجيه لكم امر؟

ج: الرائد معين قال انه ما لازم يعني تطلع هالعملية خارج منا. يعني لازم تضل مكتومة وسرية.

س:بالنسبة لسجن تدمر كيف كان جو السجن قبل قيلمكم بهذه العملية؟

ج: كان هادئ ما في اصوات مافي شي. بعدين طلعت الامور مرتبة قبل دخولنا يعني ماحدا اعترضنا بالدخول .الشرطة كانت حرس واقفة في جماعة حرس على الباب ورئيس حرس وفي شرطة بالساحة. اخدوا تفقد قبل العملية. تفقد المساجين.

س: تفقد المساجيت؟

ج: قبل بدء العملية.

س: طيب رقيب عيسى بالنسبة لزملائك في سرايا الدفاع في حد منهم كلف في مهمات اخرى؟

ج: والله بعرف في بمفرزتي ، مفرزة الرائد معين ناصيف لحراسة منزله اللي رافقوا السيد عبد الحليم خدام وزير الخاجية. علي موسى رقيب.

س: وين رافقوا؟

ج: رافقه على عمان على مؤتمر القمة العربي. بعرف علي موسى رقيب من حمص، علوي ، بعرف همام احمد ، رقيب من منطقة جبلة، علوي،بدر منصور ، رقيب من منطقة جبلة- علوي ، وعلي صالحة، عريف من منطقة مصياف، عوي، عبد الرحمن هدلان- علوي، نزيه بلول عريف علوي ، بشير قلو وعلي موسى . شاركوا في عملية تدمر.

س: شاركوا في عملية تدمر ورافقوا السيد عبد الحليم خدام لعمان؟

ج:نعم... وفي علي صالحة وطاهر زباري راحوا بمهمة سرية لروما واسبانيا.

افادة اكرم علي جميل بيشاني

-عريف في سرايا الدفاع-

س: ممكن تقدم نفسك؟

ج: انا اكرم علي جميل بيشاني من محافظة طرطوس قرية يحمور . مواليد ١٩٦٢.
اعزب. شهادتي الصف السادس الابتدائي . علوي. اسم والدي علي جميل بيشاني . علوي.
اسم امي حليمة يعقزب.واثنين حالياً يقيمون في قرية يحمور.

س: ايش عملك يا اكرم؟

ج: حالياً عريف في سرايا الدفاع .

س: شو خدمتك بالعسكرية؟

ج: في ١٩٧٨\٣\٢٣ التحقت في صفوف سرايا الدفاع ونقلت الى معسكر التدريب وهو معسكر القابون في دمشق. وهناك التحقنا في دورتين الاولى وهي دورة لغة,والثانية دورة الصاعقة ,ومن بعدها نقلت الى كتيبة مدفعية رقمها ١٤٩من لواء ٤٠سرايا
الدفاع.بالضبطهيك في شهر٥ سنة١٩٨٠ نقلت ضمن مجموعة الحراسة المفرزة حراسة بيت الرائد معين ناصيف والمجموعة هي حوالي ٢٥ عنصر .

س: ايش مركز الرائد معين ناصيف؟

ج: قائد .هومعين ناصيف قائد لواء ٤٠ من سرايا الدفاع .علوي من قضاء اللاذقية وتزوج ابنة العقيد رفعت الاسد (تماضر الاسد) والعقيد رفعت الاسد شقيق حافظ الاسد وقائد سرايا الدفاع.

س: ايش المهمات اللي كلفت بها اثناء خدمتك في سرايا الدفاع؟

ج:المهمة الاولى هي مهاجمة سجن تدمر. حيث انه بعد محاولة اغتيال الرئيس حافظ الاسد بالشهر السادس السنة الماضية ايقظونا بعد بيوم يعني حثونا من المهجع حوالي الساعة الثالثة والنصف صباحاً وقالوا لنا اجتماع بالسنما في قاعة السينما الموجودة في اللواء مع السلاح الميداني الكامل. وطلعنا وصلنا على السينما بلشت المجموعات تتوافد. اللي قادنا بالسينما كان عدد المجموعة حوالي المجموعة الموجودة في السينما من اللواء ٤٠ حوالي ١٠٠ عنصر مع ثلاث ضباط. وبعدين اجا قائد اللواء اجتمع فينا والقى فينا كلمة. بعد الكلمة قال هو انه الاخوان المسلمين قتلوا ضباط قتلوا المشايخ وقتلوا الاطباء وبالنهاية حولوا اغتيال الرئيس حافظ الاسد ، وهلأ بدنا نكلفكون بأول مهمة قتالية.

وطلعنا بعدين من اللواء ٤٠ بسيارات وصلنا الى مطار المزة . كان موجود هناك بالمطار هناك مجموعة من اللواء ١٣٨ يقدر عددها بحوالي عنصر ، واللواء ١٣٨ قائده المقدم علي ديب ، علوي من قضاء اللاذقية هناك كمان كان موجود ٩ طائرات هيلوكوبتر . جمعونا هناك على شكل مجموعات وكل مجموعة تسلمها ضابط. وطلعونا على الطائرات الموجودة هناك ةكل طائرة تسع لحوالي ٢٤ عنصر.

وطلعنا من مطار المزة . كان قائد العملية هناك يعني اللي هو قائد اركانه للمقدم علي ديب ، علوي ، من قضاء اللاذقية بس مابعرف شو اسمه.

اقلعنا الى مطار تدمر هناك يعني اقلعنا حوالي الساعة الخامسة وصلنا حوالي الساعة السادسة او السادسة وعشر دقائق. فجمعونا هناك وطلب قائد العملية المقدم المقدم اجتماع للضباط . جمع الضباط وقال لهم اعطوا العناصر استراحة حوالي ثلاث ارباع الساعة. وبعد الاستراحة ثلاث ارباع الساعة قسمونا على شكل مجموعات . فاللواء ٤٠ كان على شكل ثلاث مجموعات وكل مجموهة استلمها ضابط واخذوا ينتقوا العناصر اللي بدها تدخل سجن تدمر بشكل عشوائي . مثلاً الواحد بيعرف اسمه بيقول له: فلان انت تعال، او ما بيعرف اسمه يأشر له بيده انه تعال.

انتقوا حوالي ٨٠ عنصر . وكذلك حوالي كمان انتقوا ٢٠ عنصر لحراسة الطائرات والباقي خلوهم على شكل احتياط في المطار . بعدين توجهت العناصر هذا اللي انتقوهم يطلعوا حوالي ٨٠ عنصر . هذا اللي بدهم ينفذوا العملية داخل السجن توجهوا على شكل مجموعات بسيارة نقلتهم ال بداخل السجن. بعد ثلاث ارباع الساعة من دخولهم الى باب السجن الخارجي بدأنا نسمع صوت اطلاق نار ودوي انفجار صوت قنابل . يقدر عدد القنابل بحوالي ٧ قنابل تفجرت هناك . ودام اطلاق النار حوالي ثلاث ارباع الساعة كمان . بعده طلع العناصر من السجن مثل ما دخلوا . طلعوا على شكل مجموعات

س: انته كنت مع اي مجموعة؟

ج:انا كنت مع مجموعة الاحتياط اللي ظلت هناك في المطار.بقى لما طلعوا العناصر من السجن كان فيه بعض الناس ملطخين بالدماء . ملطخين ثيابهم بالدماء . بعرف اسماء اللي تلطخوا ثيابه مبالدماء هو الملازم رئيف عبد الله . الملازم منير درويش الرقيب علي محمد موسى وطلعنا كل واحد على الطائرة.

س: من اللواء ٤٠ وإلا؟

ج:لا.... من اللواء ٤٠ هدول . طلعان بعدين على الطائرات مثل ما اجينا ورجعنا الى مطار المزة. وصلنا لمطار المزة حوالي الساعة الثانية عشرة الظهر.كان معنا منصاب واحد.والشي اللي خلاني اعرف انه منصاب معنا واحد فيه الملازم ياسر باكير من اللواء ٤٠ قال وجه كلامه لكافة العناصر انه قائد اللواء بده يجتمع فينا هلأ في السينما.اذا سأل عن الانسان اللي انصاب قولوا له انه طلقة مرتدة ضربت في الحائط ورجعت بعدين انصاب . قلنا له ماشي الحال. وطلعنا بالسيارات واتجهنا اتجاه اللواء ٤٠ واجتمعنا في قاعة السينما.

س: جميعكو توجهوتوا مع بعض انتو وافراد اللواء ١٣٨ والا ٤٠ لوحده؟

ج:اللواء ٤٠ لحاله ، وهدولاك راحو على المعسكر تنعهم. فاللواء ٤٠ ناس يعني اللي اشتركوا من اللواء ٤٠ اجتمعوا في السينما واجا قائد لواء القى فيهم كلمة شكر.

س: اللي هو الرائد معين ناصيف؟

ج: الرائد معين ناصيف القى فيهم كلمة شكر بذكر منها انه: انتو قمتوا بعمل بطولة. بعمل رجولة ، مع انه لأول مرة نكلفكون بهيك مهمة. بعدين طلعنا من قاعة السينما واخذ يعني كل انسان يتحدث مع زميله . فالتقيت انا مع احد زملائي هناك وهو الرقيب علي موسى من مفرزة حراسة الرائد معين ناصيف وسألته لانه هو من الجماعة اللي دخلوا على السجن نفسه انه شلون هناك تمت العملية. قال لي انه قسمونا على شكل مجموعة كانت حوالي ٨ عناصر وكل مجموعة تسلمها ضابط كانوا يفوتوا الى الغرفة اللي فيها السجناء يفتحوا الباب ويطخوهم مباشرة بدون سؤال بدون اي كلام. فقلت طيب هدولاك ما كانوا يستنجدوا؟ قال: كانوا يستنجدوا ويقولوا الله اكبر . كانوا يقولون لنا: منشان الله ... منشان محمد ... منشان امك.... منشان اختك ما تقتلنا. قال لي انه ما كانوا يستمعوا لهالحكي هاي نهائياً وطخوهم بعدين طلعوا . قلت له: طيب قديش تقدر عدد القتلى اللي داخل السجن من السجناء . قال لي: عدد القتلى بيطلعوا ٥٠٠ او ٦٠٠ من السجناء هدول اللي في السجن. وفي اليوم الثاني مزعوا لكل الناس هاللي اشتركوا لكل الزملاء ياللي اشتركوا بالمهمة كل واحد ٢٠٠ ليرة سوري.

س: مين تعرف من اللي اشتركوا بهالعملية؟

ج: بعرف العريف ناصر عبد الطيف من قضاء طرطوس او اللاذقية . ما بعرف بالضبط .علوي . بعرف غسان شحادة من قضاء اللاذقية . علوي . بعرف الرقيب علي موسى من قضاء حمص اللاذقية . بعرف العريف طاهر زيادي من قضاء اللاذقية . علوي. والرقيب طلال محي الدين احمد ، علوي من قضاء اللاذقية، والرقيب نزيه بلول ، علوي من حمص، والعريف حسين علي ، علوي من قضاء حمص، والرقيب همام احمد ، علوي من اللاذقية، هدول هنه الناس اللي بعرفهم من اللي اشتركوا.

س: مين تعرف من الضباط اللي اشتركوا؟

ج: هم الملازم رئيف عبد الله من كتيبة المشاة التابعة للواء ٤٠ سرايا الدفاع ، قضاء اللاذقية، علوي، والملازم منير درويش كمان من كتيبة المشاة تابع للواء ٤٠ سرايا الدفاع، قضاء اللاذقية ، علوي، والملازم اول ياسر باكير من اللواء ٤٠ كمان علوي من قضاء حماه.

س: انت يا اكرم كشاب في بداية شبابك شو اللي ورطك في هيك مهمات وليش اخترت سرايا الدفاع؟

ج:اولاً في اقول انه الشيء اللي خلاني اختار سرايا الدفاع هوه سوء حالتي المادية والراتب اللي يتقاضاها جنود سرايا الدفاع اعلى من الرواتب في اي قطاعات الجيش الثانية. حيث انه جندي في سرايا الدفاع يتقاضى حوالي ١٢٠٠ ليرة سوري اما اي جندي في بقية قطاع الجيش يتقاضى حوالي ٥٠٠ ليرة او ٦٠٠ ليرة سوري. اما بالنسبة لورطتي في هذه العملية انه بستطيع اقول لهم انهم استغلوا ظروفي كإنسان حالتي المادية سيئة واغراني بالفلوس واستغلوا صغر سني كمان استغلوا كوني عسكري مأمور وما في ارفض هيك امر.

س: بالنسبة للضباط تعرف شيء يعني من تميزهم عن الضباط الآخرين يعني ضباط سرايا الدفاع يتميزا بشيء عن الضباط آخرين في الجيش السوري؟

ج: والله ما بعرف عن الضباط ككل بس بعرف عن الضابط اللي انا عنده موجود عنده.

س: اللي هوه؟

ج: الرائد معين ناصيف موجود عنده حوالي ٨ سيارات يعني.

س: خاصة منه؟

ج: خاصة منه وحالته المادية كويسة يعني.

س: كيف عايش هذا الضابط اللي انته تقوم بحراسته؟

ج: عايش انسان مرفه يعني بشكل.

افادة طه الخالدي :

س: مجزرة تدمر

ج: كنا بسيارة ابو شلحة وخلال رجعتنا للشام دار حديث بين الاثنين هدول يعني اللي جبناهم من الفندق ماجد ابو شلحة ودار حديث بيننا عن الاوضاع الداخلية والمشاكل اللي بسوريا. حول قال واحد منهم يمكن اذكر انه اسمه عبد المنعم قال انه اشتركت في احدى المجازر وهي مجزرة تدمر. حدّث علي فقال ٨ طائرات ركبنا هيلوكوبتر حملونا ونزلنا بقرب سجن تدمر ودخلنا على المساجين وقتلناهم كلهم روحناهم كلهم. بعد ما قتلوا المساجين سولف عبد المنعم كان اخوه رفيقه هذا او زميله بادره في الحكي في الحديث فسأله: قديش كان العدد؟ سأله ماجد ابو شلحة. فقال له: فوق ال٧٠٠ قتيل. بعدان جيت تركات جرافات بسيارات قلاب شالوا الجثث وشالوها الى وادي شرق تدمر دفنوها هناك ووصلنا الشام

بعض اسماء شهداء تدمر:

لابد لي في الختام من ان اذكر بعض الاسماء التي شهدت على خروجها للاعدام او سمعت بها باسمائهم على الباب لتعانق حبال المشانق من أولئك الابطال الذين باعوا انفسهم رخيصة في سبيل دينهم في وقت عز فيه الشباب وتسلط فيه الطغاة والجبابرة ليقضي الله امراً كان مفعولا وليجتبي الله ويصطفي اليه من يشاء من عباده المخلصين .

ان العدد الذي تم اعدامه في سجن تدمر يفوق ال٣٠٠٠٠ إلا ان السرية التي كانوا يتعاملون بها في تنفيذ هذه الجريمة كانت تحول بيننا وبين معرفة العدد الحقيقي في كل مرة كما معرفة الاشخاص الذين خرجوا على اعواد المشانق ولم نطلع على هذا إلا بعد فترة ليس بالقليلة وهذا من الاسباب التي جعل عملية الالحصاء والتسجيل لأسماء الاخوة الذين تم اعدامهم صعبة إلا اننا تذكرنا بعضاً من هؤلاء الاسماء ونوصي هنا على كل اخ

يعرف من الاسماء ان يدونها لتكون شهادة له على جرائم هذا النظام المجرم وهذه بعض الاسماء كما نتذكرها.

الاسم	المدينة	كيفية الاعدام
يوسف عبيد	دمشق	شنقاً
هيثم يبرودي	دمشق	شنقاً
ياسر صواف	دمشق	تعذيب
عبد القادر بقار	دمشق	شنقاً
عبد الكريم غانم	دمشق	شنقاً
كمال أندورا	دمشق	شنقاً
محمد صنوبر	دمشق	شنقاً
عبد الكريم الصالح	دير الزور	شنقاً
مأمون ذهبية	دمشق	مرض السل
عبد الكريم الصالح	الزبداني	شنقاً
محمد رسول المصري	حمص	شنقاً
حسام(قريب محمد رسول)	حمص	شنقاً
ملهم أتاسي	حمص	شنقاً
طريف حداد	حمص	شنقاً
عبد الغني دباغ	حمص	شنقاً
حسن الصغير	حمص	شنقاً
عدنان بدوي	حمص	شنقاً
مروان بدوي	حمص	شنقاً
سامي وحود	حمص	مرض السل
احمد الشغري(ابو صهيب)	بانياس	شنقاً
فاروق بريص	بانياس	شنقاً
علي عكروش	بانياس	شنقاً
محمد الضايع	بانياس	شنقاً
احمد الزير	بانياس	تعذيب

محمد عمر عثمان	بانياس	تعذيب
سمير عبيد	بانياس	شنقاً
عمار جودي	حلب	شنقاً
عمار قطمة	حلب	شنقاً
احمدحيش غطاس	حلب	شنقاً
عبد العزيز عطار	حلب	شنقاً
اسامة عطار	حلب	شنقاً
ياسر غانم	حلب	شنقاً
سعيد غانم	حلب	شنقاً
جمال باذنجكي	حلب	شنقاً
محمد حسكل	حلب	شنقاً
محمد جمال عيار	حلب	شنقاً
حسن رشيد عثمان	حلب	شنقاً
عبد الكريم الصالح(طالب رياضيات)	حلب	شنقاً
طاهر العلو	حلب	شنقاً
احمد زعرور	حلب	شنقاً
محمد حسين فخري	حلب	شنقاً
عبد العزيز عوض السالم	حلب	شنقاً
محمد صادق عون	حلب	شنقاً
مأمون كردي	حلب	شنقاً
محمد امين الأصفر	حلب	شنقاً
سحبان بركات	حلب	شنقاً
احمد فطومة	حلب	تعذيب
احمد سلوم	ادلب	شنقاً
على الجاني	ادلب	شنقاً
اسعد جربان	ادلب	شنقاً
محمد جربان	ادلب	شنقاً

وائل العيسى	ادلب	شنقاً
محمد بدوي	ادلب	شنقاً
احمد غرير	ادلب	شنقاً
محمد احمد شحادة	ادلب	شنقاً
عمر عبد الكريم	ادلب	شنقاً
مصطفى شحود شرتح	ادلب	شنقاً
حسن شريف زين الدين	ادلب	شنقاً
محمد احمد النايف	ادلب	شنقاً
ممدوح محمد حج ديوب	ادلب	شنقاً
وحيد مصطفى النايف	ادلب	شنقاً
محمد زكريا الشيخ	ادلب	شنقاً
اسماعيل زكريا الشيخ	ادلب	شنقاً
سعد الدين الصطوف	ادلب	شنقاً
احمد يوسف مجلاوي	ادلب	شنقاً
احمد جبر زين الدين	ادلب	شنقاً
يوسف احمد الحمد	ادلب	شنقاً
عمر جميل الناعم	ادلب	شنقاً
عموري بكور البكور	ادلب	شنقاً
مصطفى محمد الصطوف	ادلب	شنقاً
وجيه شحادة	ادلب	شنقاً
نديم منصور	ادلب	شنقاً
حزين قاسم	ادلب	شنقاً
عمر حيدر	ادلب	شنقاً
عمر محمدعلي بستاني	ادلب	شنقاً
عمر محمد بستاني	ادلب	شنقاً
بسام بريك	حماه	شنقاً
سليم ماردیخي	ادلب	شنقاً

مأمون موصلي	حماه	شنقاً
مصطفى دباس	حلب	شنقاً
دانيال ميخائيل مستريح (مسيحي متعاطف مع الاخوان)	اليعقوبية	شقاً
محمد معتز بستاني	دمشق	شنقاً
ماجد كرمان	حلب	شنقاً
فيصل صباغ	حلب	شنقاً
سليم صافية	حماه	شنقاً
رياض تتان	حماه	شنقاً
مضر عبد الباقي	ادلب	قصور كلوي أدى للوفاة
حميد جرعان	الحسكة	شنقاً
احمد منلا	حلب	شنقاً
جمال محمد خلف فيزو	ادلب	شنقاً
جمال عمر فيزو	ادلب	شنقاً
ممتاز يونسو	ادلب	شنقاً
تركي الجانودي	ادلب	شنقاً
عبد الحكيم الحصري	ادلب	شنقاً
وليد عمر مصري	ادلب	شنقاً
كمال حلّي	ادلب	شنقاً
عبد القادر الشيخة	ادلب	شنقاً
حسن الشغري	ادلب	شنقاً
احمد إسماعيل	ادلب	شنقاً
صفوح جبر	دمشق	شنقاً
احمد غريبي	ادلب	شنقاً
احمد عباس شبيب	ادلب	مرض
عبد القادر جوكا	ادلب	مرض
احمد درويش	ادلب	شنقاً

عقل محمد	ادلب	شنقاً
عبد السميع عنداني	ادلب	شنقاً
احمد عبد الكريم باشوري	حماه	شنقاً
راسم خليفة	ادلب	شنقاً
احمد البليتوت	السرمانية	شنقاً
شخص من عائلة دمّر	السرمانية	شنقاً
سمير المعلم	حماه	شنقاً
محمد نور طنجير	حماه	شنقاً
عبد الكريم خوام	حماه	شنقاً
عبد الكريم النايف	جسر الشغور	شنقاً
محمد كمال السموع	حماه	شنقاً
حسن عبد الله الأحمد	حماه	شنقاً
احمد بكر جاني	ادلب	شنقاً
مصطفى حمود زلخي	ادلب	شنقاً
محمد سامي برحوس	حماه	شنقاً
محمد الهاجر	حماه	شنقاً
عبد القادر الشيخة	ادلب	شنقاً
حكمت هلال	ادلب	شنقاً
خالد بوبو	ادلب	شنقاً
عبد الحكيم مصري	ادلب	شنقاً
عبد المجيد الذبيان	حماه	شنقاً
صفوان تلجو	ادلب	شنقاً
محمد حولاني	حمص	شنقاً
ابو طارق الشيخ	طرطوس	شنقاً
عاصم مصري	حماه	شنقاً
مصطفى عدلة المصري	حماه	شنقاً
مسعف شقفي	حماه	شنقاً

مخلص شقفي	حماه	شنقاً
سعيد شقفي	حماه	شنقاً
بسام شقفي	حماه	شنقاً
هيثم مشنوق	حماه	شنقاً
عبد المنعم احمد العبد الله	حماه	شنقاً
حسن احمد العبد الله	حماه	شنقاً
صادر محمد الكيلاني	حماه	شنقاً

إهداء	١	**المحطات الأسبوعية**	٦٦
مقدمة الكاتب	٢	الحلاقة	٦٧
خلف أسوار تدمر	٤	الحمامات	٧٠
مقدمة الكاتب	٧	المحطة الشهرية / التفتيش /	٧٤
بين الحق و الباطل	٩	المحطة السنوية / التعقيم /	٧٥
نعمة أم نقمة	١٠	نظام العقوبات في السجن	٧٦
خطوات الشيطان	١٢	دروس في التضحية	٨٠
مابين الدولاب و القيد	١٨	الإعدامات	٨٢
مخطط سجن تدمر العسكري	٣٣	ضيوف ثقلاء	٨٩
للعلم فقط	٣٦	الكوليرا	٩٠
برنامج الحياة اليومية في سجن تدمر	٣٧	الجَرَب	٩١
الاستيقاظ	٣٩	القمل	٩٥
الفطور	٤٠	هدنة مؤقتة	٩٦
التفقد الصباحي	٤٤	الحمّى المالطية	٩٩
الغداء	٥٦	السلّ	١٠١
التنفس المسائي	٦١	طرائف و ذكريات	١٠٤
النوم و الحرس الليلي	٦٣	وقفات	١٠٨

أخيراً وليس آخراً	١١١	أخيراً	١١٤
وبالمقابل	١١٣	مجزرة تدمر	١١٦
الفهرس		١٣٢	